عادلة خاتون

صفحة من تاريخ العراق

الكتاب: **عادلة خاتون**

صفحة من تاريخ العراق

الكاتب: د. عماد عبد السلام رؤوف

الطبعة الأولى: 2015
جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سوريا: ص.ب 5292
تلفاكس: 00963 11 5626009
موبايل: 00963 932 806808

E-mail: zeman005@yahoo.com
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الناشر: مكتب التفسير
للنشر والإعلان
اربيل - شارع المحاكم - تحت بناية فندق شيرين بالاص

هاتف: 2221695 - 2230908 - 2518138
موبايل: 07504605122 - 07701387291
E.mail: tafseeroffice@yahoo.com
E.mail: altafseero@hotmail.com
E.mail: tafsseroffice@maktoob.com
web site: www.al-tafseer.com

التنضيد والإخراج: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

د.عماد عبد السلام رؤوف

عادلة خاتون

صفحة من تاريخ العراق

مقدمة الطبعة الثانية

منذ أن صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1997 ونحن نسعى للحصول على كل معلومة يمكن أن تعزز مادة الكتاب وتضيف إليه، من نص مخطوط أو مطبوع أو وثيقة غير منشورة، فكان أن وقفنا على مخطوطات لم تكن معروفة من قبل، وأبرزها مخطوطة (ورود حديقة الوزراء) من تأليف العالم البغدادي محمد سعيد السويدي، الذي عاصر عادلة خاتون، فمن شأن هذا الكتاب أن يعيد تقييم سيرة هذه السيدة بما يقدمه من معلومات دقيقة استند فيها على مشاهداته الحية، وما سمعه بنفسه. ومنها كتب أشرنا إليها في حينه بوصفها من عالم المخطوطات، ثم جرى تحقيقها ونشرها، منها كتاب (حديقة الزوراء) لعبد الرحمن السويدي، ومؤلفات عبد الحميد عبادة، والسيد محمد سعيد الراوي، فضلا عن بعض الوثائق التي لم تكن قد نشرت. ومن تلك المصادر الجديدة عدد من الرحلات التي قام بها رحالون أوربيون إلى بغداد، ومنهم من سجل أحاديث مهمة عن سيرتها من واقع ما سمعوه في أثناء إقامتهم في هذه المدينة، ومع أنهم سكتوا عن مصادر مسموعاتهم، ومدى ما يمكن أن يوثق به منها، إلا أنه تبقى لتلك الأحاديث أهميتها في دراسة ما كان يشاع حول صاحبة هذه السيرة عهد ذاك.

ونظراً لنفاد نسخ تلك الطبعة منذ صدورها، فقد وجدنا أن الأوان قد حان لنعيد النظر، على نحو كلّي وعميق، في سيرة عادلة خاتون في ضوء ما توفر من مصادر معلومات جديدة، كما لاحقنا ما فاتنا توثيقه من أوقافها النافعة استناداً لنصوص وقفياتها، وما وقفنا عليه من وثائق جديدة، وما جَدَّ على منشآتها في العقدين الأخيرين من تغييرات ستصبح تاريخاً في قابل الأيام. وأرفقنا ذلك كله بعدد من الصور لتلك المنشآت.

ولابد لنا هنا أن نسأله تعالى أن يُنزل شآبيب رحمته على الحاج أمين المميز[1]، لتزويدنا بوثائق أُسَريّة كان يحتفظ بها في أرشيفه الشخصي، أفادتنا في اعدادنا الطبعة الأولى من الكتاب، ونشكر الصديق السيد زين أحمد النقشبندي على ما قام به من جهد في توفير عدد من الوثائق المهمة التي افدنا منها في اعداد هذه الطبعة وما قدَّمه من صور صوَّرها بنفسه لبعض منشآتها.

وبعد، فإنا ندعوه تعالى أن يضاعف حسنات هذه السيدة أضعافاً كثيرة، وأن يتجاوز عن سيئاتها إنه هو الغفور الرحيم.

والله من وراء القصد.

عماد عبد السلام رؤوف

إربل 1 حزيران 2013

(1) توفي في ظهر يوم الأحد 15 حزيران 1997.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

ومُطعمةُ اليَتامى والبَرايا وكاسيةُ الأرامل والعُراة
(من قصيدة كتبت على جامع العادلية الكبير)

للمرأة في بلادنا تأريخ لم يُكتب حتى الآن، أو في الأقل: لم تُجمَع أجزاؤه لتكون صورة متكاملة توضح الأدوار التي أدَّتها، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية أم اجتماعية. وفي الواقع، فإن إشارات عديدة، وان كانت متفرقة، دَلّت على أهمية ما أدّته من تلك الأدوار، وما قامت به من أعمال، وإن كان المؤرخون سكتوا- إلاّ قليلاً- عن بيان تاريخ المرأة في رسم معالم الحياة العامة للبلاد، فليس ذلك لأنهم لم يَرَوا فيه ما يستحق التسجيل، وإنما لأنهم لم يرغبوا في تسجيل مارأوا، فكَتَبَة التاريخ هم جميعاً رجال، وقد كتبوه على وفق مفاهيمهم هُم، فليس من المتصوَّر أن يُعنى أحدهم بتوضيح أثر المرأة في شأنٍ يَراه من شؤون الرجال خاصة، كتولي حكم، أو إدارة بلاد، أو اتخاذ قرار مهم مثلاً. أما إذا كان ذلك الأثر قد برز من خلال الرجل نفسه، أي بالتأثير المباشر أو غير المباشر على قرار رجل، أو جماعة من الرجال، فذلك ما لا يمكن الإفصاح عنه، لأن شأنه – في نظرهم- أن يحط من قيمة ذلك الرجل، أو تلك الجماعة، وهو ما كان يرفضه مجتمع تلك العصور رفضاً قاطعاً[1].

(1) يرى برتراند رُسل في دراسته لأشكال القوة أن هناك شكلاً آخر من أشكال القوة للأفراد، وهي القوة الخفية، التي تُمارس من وراء الكواليس، كقوة البطانة والدسّاسين والعيون وجاذبي الخيوط، ففي جميع المنظمات الضخمة (تشمل المنظمة هنا: الدولة) التي يملك المشرفون عليها تسلطاً كبيراً، يكون هناك عدد من الرجال والنساء، الأقل بروزاً، من الذين يحصلون على النفوذ بأساليب شخصية خاصة، عن طريق تأثيرهم على القادة والزعماء، وهم حينما يتولون وضع أصدقائهم بهدوء في المراكز المهمة، فإنهم يتحكمون في المنظمة في الوقت المناسب، انظر رسل: السلطان، آراء جديدة في الفلسفة والاجتماع ترجمة خيري حماد، بيروت1962، ص57- ص58.

وربما لاحظ القارئ ذلك العدد الوافر من الكتب التي اختصَّت بالحديث عن أخبار النساء، لا سيما الكتب التي تحمل عنوان (أخبار النساء) لمؤلفين من أمثال: أسامة بن منقذ، وابن الجوزي، وابن حاجب النعمان، وعلي بن محمد الظاهري، وعلي بن محمد المدائني، وهارون بن علي المُنجِّم، أو تلك التي اختصت بوصف فئة منهن، مثل كتب (القيان و القَيْنات) لإسحاق الموصلي، ومثله للمدائني، وكتاب (المتزوَّجات) لخالد الراوية، و(المُتظرِّفات) لأحمد بن أبي طاهر، ومثله للوشّاء، وكتاب (المحبوبات والمكروهات) للرقِّي، وغير ذلك[1]، إلاّ أن عليه ألاّ يتصور بأن هذه الكتب قد أرادت بيان دور المرأة في مجتمعها، لأن أكثر تلك الكتب كتبت عن المرأة إشباعاً لفضول الرجل ليس إلاّ، ومنها ما عمد إلى اختيار النوادر والحكايات إثارة لقرائها من الرجال وتشويقاً لهم.

صحيح أن عدداً غير قليل من المؤلفين وضع كتباً في تراجم النساء، أو أنهم ألحقوا تراجمهن بتراجم الرجال، إلاّ أن هؤلاء المؤلفين صَبُّوا تلك التراجم في قوالب مُحدّدة، لا تختلف في مقاييسها عن تراجم الرجال أنفسهم، وهو ما يتجلّى عند مترجمي حياة العالمات منهن بوجه خاص، حتى تكاد تنسى أنك تقرأ ترجمة امرأة، أو كأنك لو غيَّرت بعض الضمائر، لما اختلف شيء في سائر تفاصيل الترجمة. ومعنى هذا أولئك المؤرخين عَدّوا (قالب الرجل)، هو القالب النموذجي الذي يمكن أن يَسَع المرأة إن هي ارتقت إلى المستوى المثالي الذي يريده الرجل لنفسه.

أما أن تكون المرأة مرأة في أفكارها، وأفعالها، وردود أفعالها، فذلك لم يكن يتسع له أي قالب مُعَد مسبقاً، ومن ثم لا يسمح بإظهاره المؤرخون، وان أظهروه فعلى أساس أن يدل على ضعف، وينذر بشرٍّ على المجتمع وبيل!

ما أكثر ما قام به الرجل من حروب ومؤامرات، وما دبَّره من مكائد سياسية، بل وحوادث اغتيال..الخ لكن لم يثر ذلك اهتمام أحد بوصفه أمراً نشازاً أو غريباً، حتى إذا ما شاركت المرأة في شيء من ذلك، عُدَّ من غرائب الأعمال، ونوادر

(1) انظر مقدمة كتاب (مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء) لياسين بن خير الله العمري، بتحقيق رجاء محمود السامرائي، بغداد 1966.

الحوادث، والعجائب التي تنذر بخراب العالم، غافلين عن أن للمرأة أيضاً دوافعها، وطموحاتها، وربما أطماعها، فلا غرابة في ذلك إذاً.

وكم هم الرجال، من الخلفاء والملوك والأمراء، ممن جمعوا بين أعمال الرفق، والقسوة معاً ، فأنشأوا خزائن الكتب والمدارس والمستشفيات، مثلما شاركوا في المؤامرات، وقتلوا، وعذبوا، وعاقبوا، ولم يثر ذلك استغراب مؤرخي سِيَرهم، وإنما عَدُّوه من طبيعة المُلك وأحكامه، فإذا ما جَمَعت امرأة بين هذين الصنفين من الطبائع والأخلاق، وصفت بتناقض المواقف، وإضطراب الدوافع، واختلاف المزاج.

وإذا كان عددٌ من المؤلفين في العصور الإسلامية قد تطرّقوا أحياناً إلى تدوين أخبار المرأة، بل صنَّفوا الكتب فيها، وإن كانت من نوع ما ذكرنا، فإن سُكوتاً مُطبِقاً جرى على مؤلفي العصور المتأخرة بهذا الخصوص. والكتابان الوحيدان اللذان جاءنا نبأهما هما (تاريخ نساء بغداد) تأليف محمد عبد الرحمن الرَّحبي (ت1197هـ/1772م)[1] و(الروضة الفيحاء في تواريخ النساء) لياسين بن خير الله الخطيب العمري الموصلي (ت بعد 1232هـ/1816م)[2] وأول الكتابين ضاع أثرُه فلم نعلم أي النساء ترجم لهُن، أما الثاني فهو يضم تراجم نساء صالحات وأخريات طالحات استخرجها من التواريخ السابقة، ولم يترجم لأية واحدة من المعاصرات.

ونحسب أن إحجام المؤلفين عن الترجمة لمعاصراتهم يعود لنوع القِيَم الأخلاقية التي كانت تسود مجتمعات ذلك العصر، وهي قِيَم تعد الإشارة إلى المرأة، فضلاً عن الحديث عنها، أمراً مكروهاً لا يجوز الخوض فيه، بوصفه داخلا في

(1) أديب مؤرخ بغدادي، من الأسرة الرحبية التي برز منها قضاة ومفتون وعلماء في القرن الثاني للهجرة، عدّه العلامة عبد الله السويدي من شيوخه، وربما شغل منصب القضاء. وله فضلاً عن الكتاب المذكور (تاريخ قضاة بغداد) انظر كتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ط:2، لندن20، ص176–177.

(2) مؤرخ موصلي مكثر، ولد سنة 1157هـ/ 1744م ودرس وقرأ على نفسه، وتثقف بها، وتأثر بأخيه المؤرخ محمد أمين العمري في حُبه للتاريخ وتأليفه فيه، وكان شاهد عيان دقيق الملاحظة للأحداث الجارية في مدينة الموصل، وترك آثاراً عديدة معظمها في التاريخ والسير والتراجم. التاريخ والمؤرخون ص203–214..

نطاق ما يُسمّى بأسرار البيوت، وهي أسرار أمر الله تعالى بكتمانها، غير مُفرِّقين بينما هو كذلك فعلاً، وبين ذلك الضرب من الأخبار التي لها صلة بالحياة العامة. وهذا ما نَبّه إليه، في التفاتة ذكية، مؤرخ المماليك في بغداد سليمان فائق بك (1314هـ/1896م) حين انتقد سابقه المؤرخ رسول حاوي الكركوكلي (1242هـ/1826م) في إغفاله الإشارة إلى دَور (نابي خاتون) أم سعيد باشا والى بغداد[1] في توجيه الأمور في عهده فقال: «إن المرحوم رسول أفندي في كتابه دوحة الوزراء في وقائع بغداد [الزوراء] يَعزي الفساد الإداري الذي استشرى على عهد سعيد باشا إلى صديقه حَمّادي أغا، ويعتبره المسؤول الأول عنه وعن كل ما حدث، ولم يتطرق إلى ذكر شيء من تصرفات السيدة الوالدة لأنه لم يشأ ان يحشر أسماء النساء في مثل هذه الأمور ابتعاداً عن القيل والقال».[2]

وعلى الرغم من ذلك السكوت، فقد أمدّتنا سجلات الأوقاف المحتوية على نصوص الوقفيات والحجج الشرعية والإعلامات بأسماء جمهرة كبيرة من النساء الفضليات، اللواتي أسهمن في إنشاء أوتعمير مشاريع الخدمة العامة لمجتمعهن، كإنشاء المساجد والمدارس وخزائن الكتب وسقايات الماء والتكايا ودور القرآن والخانات التجارية، والإنفاق على طلبة العلم والمدرسين والأرامل والأيتام، وضروب كثيرة من مثل تلك الأعمال النافعة[3]، كما لم تعدم بعض تلك المنشآت نفسها من كتابات أثرية تشير إلى ما قامت به هذه السيدة المحسنة أو تلك من أعمال بناء أو وقف أو تعمير. هذا إضافة إلى إشارات نادرة، ومتفرقة، إلى نساء ذوات شأن في الحياة العامة، مثل السيدة عادلة خاتون موضوع هذا الكتاب.

---

(1) تولاها من سنة 1228 الى 1231هـ/ 1813–1815م.

(2) سليمان فائق: مرآة الزوراء في سيرة الوزراء (نشر بعنوان تاريخ بغداد) ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس، بغداد 1962، ص56 وللمقارنة أنظر رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء، ترجمة عن التركية موسى كاظم نورس، بيروت (دون تاريخ) ص269–270.

(3) جمعنا تلك الأعمال من اصولها الخطية والوثائقية في كتابنا: تاريخ الخدمات النسوية العامة في العراق، نشرة محدودة، بغداد 1996، وينظر أيضاً كتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة في ضوء الوقفيات والاعلامات والحجج الوقفية المحفوظة في ارشيف وزارة الاوقاف ببغداد، بغداد2000 في معظم صفحات الكتاب.

الفصل الأول

سيرة شخصية وسياسية

أسرة وعهد

عاش العراق، منذ أواخر القرن الحادي عشر للهجرة (17م) أحوالاً مترديةً، باتت تُنذر بعواقب سياسية وعسكرية وخيمة، ففي ذلك العهد، انكشف ضعف أفواج اليَنْكَجَرية (الانكشارية) في المدن الرئيسة، بعد توقف إمدادها بالجند حسبما تقتضيه الأنظمة العسكرية، وأدت قلة علوفاتهم (رواتبهم) الى كثرة حوادث تمردهم، ونشوب الصراعات بين أفواجهم[1].

ولم يكن حال العراق، المواجه لإيران، والمُطل على الخليج العربي، يسمح بمثل هذا الوضع العسكري الرخو، فحاول ولاة متعاقبون في القرن المذكور، أن يَرأبوا الصدع، بالإرتكان إلى قوى القبائل المحلية، بوصفها قوى ذات تقاليد وخبرة قتالية عالية، وكونها تشكل النسبة الأعلى من السكان عهد ذاك، بيد أن لإزدياد الاعتماد على هذه القوى مساوءه التي تكافئ مزاياه، ذلك أن ازدياد إحساسها بقوتها المتعاظمة، من شأنه إثارة المتاعب للإدارة نفسها، وفرضها نفوذها على الولاة والمتسلمين وغيرهم من ممثلي السلطة المدنية في البلاد، فضلاً عن تهديدها طرق المواصلات، بما يعنيه من تعطل التجارة وكساد الأسواق. وكان تهديد التجارة، مع جَبي ضرائب الزراعة لحساب تلك القوى، يعني أيضاً تقويض الحياة الاقتصادية كلها، أما سكان المُدن ففضلاً عن قلّة نسبتهم إلى سكان العراق في ذلك العهد، فان أكثرهم قد انخرط في أفواج اليَنكَجَريّة (الإنكشارية) التماساً لما يؤديه ذلك لهم من مزايا، وما يدفعه عنهم من تعدٍ، دون أن يتحلوا بما تقتضيه الحياة العسكرية من ضبط وعقيدة قتالية.

ولم يكن أمام الدولة العثمانية، لتدارك هذا الوضع المتردي، إلا أن ترسل إلى العراق، في مطلع القرن الثاني عشر للهجرة (18م) أحد أكفأ رجال إدارتها، وهو حسن

(1) عُد الينكجرية في عهود العثمانيين الأولى القوة الضاربة الرئيسية للدولة، وكلهم من المشاة ومنهم في البحرية، وقد توزعت اوْرطاتهم (أفواجهم) في المدن الرئيسية في العراق، لا سيما بغداد والموصل والبصرة، وفي بعض القصبات الحدودية الشرقية، وقدر عدد الفوج الواحد بنحو 300 إلى 500 مقاتل.

باشا بن مصطفى بك الأيُوبي[1]، ليجد لمشاكله – وما أكثرها- حلولاً ذاتية، من شأنها تمشية أموره، وتقوية دفاعاته، دون أن يكلف ذلك الدولة المركزية أية أعباء إضافية.

دبره حيث ولد مصطفى باشا أبو حسن باشا

---

(1) نسبة إلى حي الصحابي أبي أيوب الأنصاري أحد أحياء استانبول القديمة، حيث كان يقيم، وإلا فإنه ولد في بلدة (قترين) في ولاية سلانيك من ولايات الروملي (القسم العثماني من أوربا). وأما لقب أبيه مصطفى فهو (السباهي) وتعني الفارس بحسب تنظيمات الإقطاع العثماني العسكري المعروفة باسم (تيمار). ويذكر عبد الرحمن السويدي أنه كان من أهل سنجق قرب ناحية دبرَه. حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، بتحقيقنا، بغداد 2003، ص44. قلنا: وتقع هذه البلدةَ ضمن ولاية مناستر، من ولايات الروميلي أيضاً. وورد في إعلام شرعي كتب في عهد السلطان سليم خان (يظهر أنه سليم الثالث 1203- 1222هـ) أن اسمه (كورجي حسن باشا) مما يدل على أن أصله من جورجيا، ولحسن باشا أخ اسمه (علي بك)، له من الأولاد 1- سلمان آغا البيرقدار 2- سلطان آغا، وقد أنجب الأخير كُجُك أحمد آغا، فأنجب هذا درويش آغا، وكان للأخير من الأولاد 1- صوفي عبد الرزاق 2-خالد آغا 3- جرجيس 4- يونس آغا، وقد أعقب صوفي عبد الرزاق 1- عثمان قصاب 2- نفيسة، بينما أعقب جرجيس عبد المطلب، وأعقب يونس آغا 1- عمر آغا 2- آسيا خانم 3- نازندة خانم، ولأغلب هؤلاء أولاد وأحفاد موجودون اليوم. وهم ذرية مصطفى بك، جد أبي عادلة خاتون. وقد سكتت المصادر البغدادية عن تتبع ذرية علي بك بن مصطفى بك، وتتبعها هوشيار عبدالله في بحثه (ده زيي وناوجه دزه بيايه تي ده شتي هه ولير) المنشور بالكردية في مجلة (هه ولير)، الصادرة في أربيل، العدد 7، السنة 2000، ص116، ويسمي الكاتب المذكور حسن باشا بالدياربكري، مع أن مصادر ترجمته المعاصرة تسميه الأيوبي نسبة إلى حي أيوب باستانبول كما تقدم.

قترين حيث ولد حسن باشا ابو عادلة خاتون

وما أن وطأت قدما حسن باشا أرض بغداد، في 13 صفر سنة 1116هـ/17 حزيران 1704م، حتى بدأ في العراق تأريخان، أحدهما تاريخ التغيرات الإدارية والعسكرية والاجتماعية التي ستشهدها البلاد في عهده، وثانيهما تاريخ أسرته الصغيرة نفسها بوصفها تمثل السلالة التي سيكون لها شأن في قيادة تلك التغيرات من بعده.

فأما التاريخ الأول فقد بدأ حين أحدث حسن باشا مدارس خاصة، واستورد الأرقاء الجورجيين البيض، وهم أطفال صغار، لينشأوا في ظل نظمها التربوية الصارمة، مُكوِّنين – بعد تخرجهم- قيادات إدارية وعسكرية جديدة، لها من الإنضباط والكفاءة ما يُمكِّنها من تولي شؤون البلاد المختلفة، فكان هؤلاء هم الذين عُرفوا بـ(الكُولَه مند) أي المماليك. وقد نجح حسن باشا في تجربته الجديدة، إذ صار المماليك خيرة الضباط الذين تولوا قيادة القوات العثمانية، وجُلّ أفرادها من العراقيين، إلى إيران، إثر انهيار الدولة الصفوية فيها، والاستيلاء على العديد من القرى والأصقاع هناك[1].

(1) بحثنا: القوى والمؤسسات العسكرية العراقية من الغزو المغولي الى اقصاء المماليك عن حكم العراق، في موسوعة تاريخ القوات العراقية المسلحة ج1، بغداد وزارة الدفاع 1986، ص139.

أما تاريخ أسرته، فبدأ حين تزوج – وهو مقيم يومذاك في استانبول– من كريمة الوزير مصطفى باشا، وتدعى عائشة[1]. وكانت هذه «ذات الحَسَب الطاهر والنسب الفاخر، رفيعة المجد، اسلامبولية المولد»[2]، صحبته في تنقلاته الإدارية بين الولايات التي تولاها، حتى استقرت معه في بغداد، وفيها توفيت في أواخر رمضان سنة 1131هـ/ منتصف آب 1719م، ودفنت في ضريح السيدة زمرد خاتون، المنسوب إلى السيدة زبيدة، قرب جامع الشيخ معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد.

ضريح السيدة زمرد خاتون حيث دفنت جدة عادلة خاتون

فأنجب منها ثلاثة أبناء، هم أحمد[3]، وصَفيّة، وفاطمة. وبينما تزوجت فاطمة من عبد الرحمن باشا والي شهرزور، وتزوجت صفية قَرَه مصطفى باشا

(1) ينظر عبد الرحمن السويدي: حديقة الزوراء ص168.

(2) حديقة الزوراء، ص169.

(3) ولد في قصبة جفلكة القريبة من استانبول. حديقة الزوراء ص226.

والي طرابزون[1]، وصار لكل منهما أبناء وأحفاد، انصرف أحمد للحياة العسكرية رفقة أبيه، فتعلم «اصطدام الفرسان، ومقارعة الأبطال والشجعان.. ومارس الحروب»، كما تدرج في مجال الإدارة، فولي ولاية شهرزور سنة 1127هـ/1715م، فقُونية في السنة نفسها، ثم ولّي حلب سنة 1129هـ/1717م، ومنها نقل إلى ولاية البصرة سنة 1131هـ/1718م[2].

بلدة (جفلكه) حيث ولد أحمد باشا أبو عادلة خاتون

وكانت الحرب العثمانية- الإيرانية قد اشتعل أُوارها في سنة 1135هـ/1722م، فانشغل أبوه والي بغداد بقيادة الجيش إلى الجبهة الإيرانية، وحينما توفي عند أسوار همذان سنة 1136هـ/1749م، تولى ابنه أحمد باشا ولاية بغداد وتوابعها بعده، فقاد الجيش، وأكثر قياداته من المماليك، ومضى به إلى هَمذان ففتحها، فضلاً عن مناطق واسعة من غربي ايران. ثم كان عليه، بعد أن ظهر نادر شاه على مسرح الأحداث في إيران، أن يقوّي مُدُنه، ويتصدى لهجوم إيراني كبير.

---

(1) شارك عبد الرحمن باشا وقره مصطفى باشا في حملة أحمد باشا لفتح همدان. ينظر. Hammer,Histoire de L E Ottoman, Tome 14,P.155

(2) حديقة الزوراء، ص226.229.

ولقد نجح المماليك في حالتي الهجوم والدفاع، في إثبات كفاءتهم، وحسن تدريبهم، فمضى أحمد باشا في توسعة مدارسهم، والإكثار من جَلبهم، والعناية بتربيتهم[1]، وقد رافق ذلك كله الاهتمام بتحصين بغداد، وتعمير دار الحُكم (السراي) فيها، وإقامة الثُكنات للجيش في بعض أنحائها، فبَدَت بغداد في عهده صورة مُصَغَّرة من بلاط السلاطين، تُنشأ فيها القصور الجديدة على شاطئ دجلة، ويُزيَنْ دواخلها بآلات الزينة والفَرش الجيد، وتُغرس البساتين الغُن فيما بين قصورها، حيث تتنزه في أفيائها أسرة الوالي، في جو بهيج يتواءم مع حياة مدنية جديدة، تخفي وراءها معالم نظام عسكري قوي.

ضابط من المماليك

(1) وصف المؤرخ البغدادي المعاصر محمود بن عثمان الرحبي جيش سليمان باشا من المماليك بقوله أنهم رجال «توزن آحادهم بآلاف، وأفرادهم بأضعاف، يرون الملاحم ولائم، والوقائع نقائع، وصفوف الغراب عرائس، وصنوف الكماة فرائس، ربتهم الحروب في حجورها». بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان، الورقة 42، وينظر سليمان فائق بك: تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد، ترجمه عن التركية محمد نجيب أرمنازي (Nieurwenhuis ,T, Politics and Society in Early Modern Iraq (Amsterdam 1982) pp.13-16.

تزوج أحمد باشا من فتاة تدعى (كُلَرُخ خاتون)، أي المُوردَّة الخَد، أو الجميلة، فولدت له ابنتيه الوحيدتين، عادلة خاتون، وعائشة خاتون. وعلى الرغم من أن المصادر تسكت عن وصف طفولة هاتين البنتين، وظروف نشأتيهما، إلاّ أن لنا أن نتصور نوع الحياة التي عاشتاها، وهي حياة تجمع بين معاناة الإقامة في مدينة قاصية عن عاصمة الدولة، كثيرة المشاكل، يهددها حكام إيران المجاورون بالهجوم بين حين وآخر، وتشيع فيها الفوضى ويَقل الأمن، وبين متعة تأسيس سلالة حاكمة حقيقية، لها علاقاتها الخاصة بالسكان، وبأتباعها من المماليك وغيرهم، ممن كانت تكتظ بهم ساحات السراي وأروقة أجنحته الكثيرة. وفي الواقع فإن نمطاً من حياة كهذه، تجعل الحاكم قريباً من الشعب إلى حد ليس بالقليل، ففي بغداد – لا كما هو الحال في العاصمة القسطنطينية- يَرى الوالي وأسرته أفراد الشعب العاديين، ويسمع نداءاتهم، بمجرد أن يفتح نوافذ قصره، وبهذا يكون قريباً من مشاكل هذا الشعب، فلا يستطيع أن يقف منها موقف التجاهل، مهما كثر الحُجّاب الذين يفصلون بينه وبين الناس، بل هو مضطر إلى التعامل مع زعامات شعبية تعامله مع مراكز القوى الرسمية، لأنه يعلم أن أية انتفاضة عامة تقودها تلك الزعامات قد تؤدي إلى حالة من الفوضى تدفع السلطات المركزية إلى عزله عن منصبه.

وإذا كانت مدة حكم حسن باشا وابنه أحمد باشا تمثل مرحلة جديدة غادرت فيها السلطة مظاهرها العسكرية السابقة، لتتخذ لها مظاهر حكومة مدنية أكثر استقراراً، فإن هذه المظاهر كانت تخفي وراءها من طبيعة عصرها: دسائس ومؤامرات، يُدبِّرها أصحابها بسرية وصمت، فينفذون مآربهم، بعيداً عن استخدام القوة السافرة، بما فيها من ضجة وقعقعة سلاح.

ومن ناحية أخرى، فإن توطيد حد أدنى من الأمن في البلاد، وازدهار التجارة، أدّيا إلى توفر الأموال لدى الوالي ورجال سلطته، وهو ما تم توظيفه بعناية، في استمالة القوى المؤثرة في الولاية، وفي تجنيد مزيد من المماليك، وفي إنشاء العديد من المؤسسات الدينية والثقافية التي يَلقى تأسيسها، بعد مدة من الإهمال، قبول الشعب ويحظى بتأييده. وستحذو الأسرة، التي أصبحت الآن أسرة حاكمة حقيقية، حذو مؤسسها، فتنشئ من هذه المؤسسات ما يكون سبباً في نشر ذكرها، ويعزز من مكانتها بين الناس.

قشلة بغداد وفي أرضها كانت قصور المماليك

الجانب الغربي من بغداد في منتصف القرن التاسع عشر،
ويظهر قسم من بقايا سور الكرخ الذي شيده أحمد باشا أبو عادلة خاتون

حديث النشأة

إن الاشارات القليلة التي نملكها عن حياة عادلة خاتون، قبل زواجها سنة 1145هـ/1732م، تفيد بأنها وُلدت من أم تدعى (كُلرُخ خانم)[1]. ولا ندري متى توفيت هذه الأم، ولكن يظهر أنها تركت في نفس ابنتها من الذكرى الطيبة، والأثر

(1) عبد الحميد عبادة: العقد اللامع في اثار بغداد والمساجد والجوامع، بغداد 2005 ص273.

الباقي، ما لم تكن تنساه حتى أواخر حياتها، فإننا وجدناها تنشئ «لروحها» أول جامعيها، وهو المعروف بالعادلية الصغير سنة 1160هـ/1747م[1].

وثمة إشارة لإبراهيم بن عبد الغني الدروبي تفيد بأنها ولدت سنة 1112هـ/1700م ويعني هذا انها لبثت 33 عاماً حتى تزوجت، وفي رواية أخرى أوردها الدروبي أيضاً أنها ولدت سنة 1103هـ/1691م[2] وهي رواية أبعد عن التصديق من سابقتها لأنها تكون قد تزوجت وعمرها 42 عاماً، وهذا أمر يخرج على مألوف ذلك العصر، ولا نجد تبريراً له، لا سيما إذا ما لاحظنا منزلة أبيها، ووصفها بالحكمة والتعقل والجمال[3]. وإذ علمنا أن شقيقتها الصغرى تزوجت سنة 1160هـ/ 1747م يكون من غير المتصور أن تفصل بين ولادة البنت الكبرى وزواج أختها الأخرى مدةٌ تقرب من نصف قرن كامل. والأدعى إلى القبول أن ولادتها حدثت في حدود سنة 1130هـ/1717م تقريباً، لأنها في هذه الحال تكون قد تزوجت وعمرها يبلغ خمسة عشر عاماً تقريباً، وهو متوسط سن الزواج لمثلها في ذلك العصر. وإذا افترضنا أن تحرُّفا أصاب هذا العدد الذي نقله الدروبي في روايته الأولى، فيكون صوابه 1132هـ تحديداً، وإذا كان تاريخ ولادتها على ما ورد في روايته الثانية هو 1103هـ فيكون خطأ قد أصاب هذا العدد أيضاً وأن صوابه 1130 على ما ذكرنا، بتقديم وتأخير يسير في العدد المذكور. وإذ ذكر بعض المؤرخين أن أمها كانت ابنة أمير عربي، فيكون زواج ابيها من أمها هذه قد جرى في حلب غالباً، لأنه كان يتولاها في ذلك التاريخ كما تقدم، ولسنا نعلم اسم هذا الأمير العربي، ولكننا نستطيع أن نرجح أنه زعيم لبعض القبائل العربية النازلة في النواحي القريبة من حلب.

وفي وسعنا القول بأن عادلة خاتون تلقت تعليماً جيداً بحسب مقاييس ذلك العصر الثقافية، مثلها في ذلك مثل سائر أفراد أسرتها، فأبوها أحمد باشا، قد

---

(1) المصدر نفسه. وورد في حديقة الزوراء ص 359 عبارة ربما فهم منها أن أم عادلة خاتون كانت حية سنة 1145هـ/1732م إذ جاء فيه أن أحمد باشا فكر بإغراق عياله لكي "لا يقال أن حَرَم الوزير الأكبر والدستور الأشهر أسَرَه كلب العجم حين أخذ بغداد وعليها هجم".

(2) فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 338ب.

(3) عبد الرحمن السويدي: حديقة الزوراء ، ص331.

أثبتت الأيام، ولا سيما في أثناء مدة ولايته الطويلة، أنه كان مثقفاً، مُحبّاً للعلم وأهله، وهو أول والٍ يتبع سياسة تقريب العلماء، وربما كانت صلته الحميمة بالشيخ عبد الله بن حسين السُويدي العالم الأديب[1]، خير أنموذج على هذه السياسة الثقافية التي اتبعها،[2] وذكر معاصره عبد الرحمن السويدي أنه كان «يكرم العلماء غاية الإكرام، ويحترمهم نهاية الإحترام، دائماً مشحون مجلسه ببث المسائل، ومناظرة كل فاضلٍ فاضل، فإذا ذكرت عويصة كان مفتاحها، أو عُرضت دقيقة في الحال أبدى مصباحها»[3]، وكانت أخت عادلة الصغرى عائشة، تتميز – على الرغم من طبيعتها الهادئة- بسعي محمود لإنشاء المساجد والمدارس[4].

(1) العلامة الشهير، ولد ببغداد سنة 1104هـ/1692م، وتلقى العلم على علماء مدينته وعلماء الموصل، ونبغ في العلم والأدب، حضر مؤتمر النجف الذي عقده نادرشاه في صحراء النجف سنة 1156هـ/1743م ممثلا عن الجانب العثماني، وسافر إلى مكة حاجاً ووصف وقائع رحلته في كتابه (النفحة المسكية في الرحلة المكية)، وألف نحو خمسة عشر كتاباً في علم التجويد وفي الحديث الشريف وفي علم العقائد وفي الفقه واللغة والأدب، وله شعر جيد، وتوفي ببغداد سنة 1174هـ/1760م. وفصلنا القول في سيرته في كتابنا: عبد الله السويدي، سيرته ورحلته، بغداد 1988، وفي مقدمتنا لكتابه النفحة المسكية، ط2، بيروت 2009.

(2) كتابنا: عبد الله السويدي، ص21–25.

(3) حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ص308.

(4) ومن أعمالها تجديدها عمارة جامع قمرية في الجانب الغربي من بغداد، المرتقي زمن بنائه إلى أواخر العصر العباسي، وذلك سنة 1163هـ/ 1750م كما دل ذلك التعمير مضمون الأبيات المحررة على باب المصلى، وموضع الوضوء. محمود شكري الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها، بتهذيب الشيخ محمد بهجة الأثري، بغداد 1346هـ، ص114– 115. وديوان عبد الرحمن السويدي، بتحقيقنا والحاج وليد الأعظمي، بغداد 2000، ص 146 وفيه أن تاريخ التعمير هو 1179هـ وذكر الدروبي أن من أعمالها عمارتها لجامع الفلوجة ووقفت عليه أوقافاً، وقال «وهو اليوم جامع عامر تقام به فيه الصلوات الخمس والجمعة وفيه مدرس وإمام وخطيب، صليت فيه الجمعة سنة 1360هـ». فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 338ب. ورجح عبادة أن المسجد الذي كان يحمل اسم (مسجد عائشة خاتون) في محلة الطوب، مقابل وزارة الدفاع القديمة، في الدرب الواقع شرقي جامع المرادية، المفضي إلى جامع علي أفندي، هو من منشآت هذه السيدة، وكان للمسجد دار موقوفة عليه في المحلة نفسها، وقد جرى نقضه ضمن ما نقض من محلة الطوب سنة 1960. العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، بتحقيقنا، بغداد 2005، ص180 ومحمد سعيد الراوي: خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد بغداد 2006، بتحقيقنا، ص271.

وعُرفت إبنة عمتها خديجة خانم بنت صفية خانم، ووالدها هو قره مصطفى باشا والي طرابزون، باهتماماتها التاريخية، فقد قرَّبت إليها المؤرخ البغدادي المعروف عبد الرحمن السويدي (1134-1200هـ/1721-1785م) وكتب، بطلبٍ منها، تاريخه المفصل لعهد حسن باشا وأحمد باشا، بعنوان (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء)[1].

وإذا كانت النتائج تُفصح عن مقدّماتها أحيانا، فإن سيرة عادلة خاتون نفسها، واهتمامها بإنشاء المساجد والمدارس، ووقف الكتب، والعناية بإرساء تقاليد خاصة بها، كانت تدل على المستوى الثقافي العالي الذي حازته، وما اتَّسَمت به من إدراك لأهمية العلم والتعليم، وقد نوَّه عبد الرحمن السويدي بما اتصفت به من العلم والكرم والأخلاق القويمة[2]. وقال السيد محمود شكري الآلوسي (المتوفى سنة 1342هـ/1924م) «وكانت هي من أهل التقوى والصلاح مُحبَّة لأهل العلم والزهد كثيرة الصدقات»[3]. ووصفها عبد الحميد عُبادة (المتوفى سنة 1349هـ/1930م) بأنها «كثيرة الصدقات، مُحبّة لأهل العلم والصلاح»[4]، وذكر السيد محمد سعيد الراوي (المتوفى سنة 1354هـ/1936م) بأنها «صاحبة الخيرات والمَبَرَّات» وقال «كانت هذه الخاتون المرحومة من الصلاح والتقوى على جانب عظيم، كثيرة الصدقات»[5]. ونوَّه ابراهيم الدروبي بعلمها وثقافتها الواسعة فقال «كان بيتها مجمع الأدباء والعلماء والفضلاء، وكانت تحضر بنفسها مجالس العلم والفضل والحديث والتفسير»[6]، ومثل هذه الصورة تتفق مع ما ذكره معاصرها محمد سعيد السويدي بأنها «العالمة العارفة العليمة الكاتبة»[7]، لكننا نستبعد أن تحضر

(1) منه نسخة عليها تصحيحات بخط المؤلف في مكتبة المتحف البريطاني وأخرى منقولة عنها في المركز الوطني للمخطوطات في بغداد، وقد قمنا بتحقيقه والتعليق عليه وصدر عن المجمع العلمي العراقي ببغداد سنة 2002 ويقع في 660ص.

(2) حديقة الزوراء ص330.

(3) مساجد بغداد الورقة 43.

(4) العقد اللامع ص353

(5) خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، ص102

(6) فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 341ب.

(7) ورود حديقة الوزراء بورود وزارة مواليهم في الزوراء، بتحقيقنا، دمشق 2012ص37-38.

بنفسها تلك المجالس إلا إن كان ذلك من وراء حجاب، فذلك ما يتفق وتقاليد عصرها وقيمه.

القصر الذي كان منزلا لولاة بغداد منذ عهد حسن باشا وفيه عاشت عادلة خاتون (ويسمى بيت الوالي ويقع قرب القشلة على شاطئ دجلة)

عاشت عادلة خاتون في قصر أبيها القريب من سراي الحكم[1] ببغداد[2]، السنين الأخيرة من حكم جدِّها القوي حسن باشا، وهي السنين التي شهدت ملامح القوة والاستقرار في البلاد، كما عاشت بعد ذلك شطراً من صباها، قبل أن تتزوج في عهد أبيها أحمد باشا، في المدة التي تميزت بفتوحاته العسكرية في همذان وأعمالها، وبَسْط هيمنة العراق على مناطق واسعة من غربي ايران، والسيطرة على ما كان متنازعاً عليه في عهد الصفويين السابق، فزاد ذلك كله من

(1) كان الولاة ينزلون، منذ عهد حسن باشا في قصر خاص مطل على دجلة، شغلته وزارة المعارف (التربية) فيما بعد، وجددته مديرية الآثار العامة في أوائل ثمانين القرن الماضي، أما سراي الحكم فهو المبنى المجاور للقصر، الذي شغلته مديرية الشرطة العامة، ومديرية شرطة السراي، وأخلتاه في ثمانينات ذلك القرن، ولم تكن مباني (القشلة) التي تقع جنوب المَبنَيَين قد أنشئت بعد.

(2) بما أنها كانت البنت الكبرى لأبيها، ولم يكن له ولد من الذكور، فقد اعتاد الشعراء على تكنيته بأبي عادل. ينظر ديوان عبد الرحمن السويدي، ص73.

اعتداد الفتاة بدَوْر أسرتها في تقرير مصير البلاد التي قضى الله أن تكون وطنها، وزادها اعتزازاً بمآثر جدها، وأبيها، بوصفهما قد أرْسَيا دعائم النظام القوي الجديد.

ومن ناحية أخرى أدركت عادلة ان أمنها الشخصي قد ارتبط بأمن البلاد حينما قُدِّر لها أن تجد نفسها قد سيقت، مع غيرها من حريم الباشا، لتقضي أياماً عصيبة في بعض حُجرات السراي القريبة من دجلة، وذلك في أثناء هجوم نادرشاه على بغداد في شتاء سنة 1145هـ/ 1733م واندلاع المعارك حول أسوارها، وكان أبوها أحمد باشا قد أظهر لها ولسائر «الحريم والعيال» أن انتقالهم إلى السراي ليس إلاّ من أجل إرسالهم إلى البصرة، خوفا على حياتهم، بينما كانت النية مبيَّتة لنقلهم، فيما إذا دخل نادرشاه بغداد، إلى زوارق خاصة «أرساها تحت الدار وخرَقها، ووضع على الخَرْق شيئاً من القار، فيضع جميع عياله فيها، ويسيرها حتى تتوسط دجلة، فيرفع الملاح ذلك القار ويغرق الجميع في دجلة»[1]. ويكون أحمد باشا في ذلك الوقت قد قاتل حتى قتل. ولا نشك في أن حادثة كهذه كان من شأنها أن تدخل على عادلة خاتون شعوراً عميقاً بالتضامن مع أبناء مدينتها، وأن الحياة العامة لم تكن بعيدة عن الحياة الخاصة بها، بل عن سلامتها الشخصية وسلامة أسرتها. وربما كان ذلك الشعور هو سبب اهتمامها، بل وتدخلها، في الشؤون العامة للبلاد.

مرحلة جديدة

يعزي بعض الرحالين الذين مروا ببغداد تزويج أحمد باشا ابنته عادلة خاتون من مملوكه سليمان اغا (سليمان باشا أبو ليلة كما سيُعرف فيما بعد)[2] إلى

(1) حديقة الزوراء ص359.

(2) تنظر ترجمته في رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء ص106–132 وياسين العمري: زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، بتحقيقنا، النجف 1974، ص108–110، 119–120، 138، 167، 228، 229 والدر المكنون الورقة 302–306 وغاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، بغداد 1968، ص182–184 ومجهول، نظنه ياسين العمري نفسه: روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار ص25–28 وسليمان فائق: تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد، ترجمة محمد نجيب الأرمنازي، بغداد 1961، وفائق: مرآة الزوراء في سيرة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، نشر بعنوان (تاريخ بغداد)، بغداد 1962، ص17، 29، 162، 164 وسليمان

حادثة شهيرة، هي إسراع الأخير إلى إنقاذ سيِّده من أسد حاول البطش به أثناء ممارسة رياضة صيد الأسود في (هور عَقَرقُوف) قرب بغداد. ذكر نيبور، وهو أول من تحدث عن هذه الحادثة، أن أحمد باشا كان مُغرماً بصيد الأسود، وكثيراً ما قتل عدداً منها بيده، وكان لا يسمح لأحد أن يساعده تأكيداً على شجاعته، وصادف ذات مرة أنه طارد أسداً كبيراً، وكان بمعيته أربعون رجلاً من حاشيته وخدمه، آثروا البقاء في المؤخرة وتركوا أحمد باشا وحده يستمتع بمطاردة الأسود وصيدها، ولكن مملوكه سليمان آغا (باشا فيما بعد) كان يتابعه عن بُعد، وبعد طراد عنيف لحق أحمد باشا بالأسد وهاجمه ولكن رمحه انكسر، ولم يجد أمامه بُداً من الهرب، إلاّ أن سليمان أسرع إلى مساعدته فطعن الأسد وقضى عليه، وبذلك أنقذ حياة سيده من موت محتم، فوعده أحمد باشا بابنته لقاء هذا الصنيع الذي نمَّ عن نُبله وشجاعته. وهكذا فتح باب الترقي في المناصب أمام سليمان، على ما معروف من سيرته، ليصبح مؤهلاً للزواج من عادلة خاتون[1].

وإذ تشير المصادر المحلية إلى هذا الحدث فإنها لا تجعله سبباً لذلك الاقتران، ولا تشير إلى أي دور لسليمان باشا فيه، وإن كان منطقياً أن يكون أحد الأتباع الذين خرجوا برفقة أحمد باشا. يصف عبد الرحمن السويدي ما جرى في ذلك اليوم بقوله أن أحمد باشا طعن الأسد بحَربته أولاً، فما كان من الأخير إلاّ أن وثب على حصانه، فاضطر إلى النزول عنه وعمل كمين له بأن شرع ينتظر وثبته عليه فيطعنه بخنجره، ولما لم يفعل الأسد ما كان يتوقعه، ركب الباشا حصانه ونادى أتباعه، وشرع الجميع بالبحث عنه، فوجدوه قد سقط جريحاً من أثر الطعنة بالحربة، فقتلوه وسلخوا جلده وحشوه تبناً وعادوا به إلى بغداد[2]، ويؤكد الكركوكلي أن أحمد باشا قاتل الأسد منفرداً بينما فر أتباعه وخدمه وتركوه

عزي: مرأى التواريخ، الأوراق 150–226 وأحمد جودت، تاريخ جودت، ج1، ترجمة عبد القادر الدنا، ص377. وغير ذلك.

(1) هذا ما سجله نيبور وهويد عن أفواه أهل بغداد في أثناء إقامته ببغداد. انظر رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة الدكتور محمود الامين، بغداد 1965، ص57 وهويد: رحلة من ساحل مالابار إلى القسطنطينية، ترجمة سعاد محمد خضر، السليمانية 2011، ص134.

(2) حديقة الوزراء ص331–333.

وحيداً[1]، وعلى هذا النحو رسم أبو الضياء توفيق المشهد، حيث يبدو أحمد باشا على فرسه وحيداً وهو يحاول طعن الأسد في رأسه أو في رقبته بخنجر في يده، وإذا كان صنيع سليمان في انقاذ حياة سيده حقيقة سكت عنها المؤرخون، أم مجرد اشاعات أشاعها سليمان نفسه بعد وفاة أحمد باشا، ونحن نميل إلى الرأي الأخير، فإن أسباباً أكثر جوهرية كانت هي التي حتمت هذا الزواج، بل وحددت تاريخه.

أحمد باشا يصارع الأسد- تقويم أبي الضيا توفيق[2]

والي بغداد الوزير أحمد باشا في أثناء صيده الأسود في هور عقرقوف قرب بغداد 1145هـ/1732م، وهي الحادثة التي قيل أنها أدت إلى أن يبدي تابعه سليمان آغا من الشجاعة والإخلاص ما جعل أحمد باشا يزوجه ابنته الكبرى عادلة خاتون (أعاد نشرها عباس العزاوي)

ففي عام 1144هـ/1734م شهدت العلاقات العثمانية – الإيرانية انعطافاً مهماً في صالح الدولة العثمانية وولاة العراق، إذ تبدى جليا انهيار الدولة الصفوية في ايران أمام قبائل الأفغان القوية، التي تمكنت بسهولة من اكتساح مناطق واسعة من أهمها مشهد وكرمان وأصفهان، فصدرت الأوامر لحسن باشا والي بغداد

(1) دوحة الوزراء ص28.

(2) كاتب صحفي تركي، ولد سنة 1848 وتوفي سنة 1913، وقد صدر كتابه سنة 1900م، وهو يضم مباحث عديدة في التاريخ والآثار وغير ذلك، ينظر علي سيدي وعلي رشاد: مصور دائرة المعارف، استانبول 1332هـ، ج1 ص530.

بالتحرك على رأس قواته بسرعة إلى ايران والسيطرة على المناطق الغربية منها تحسُباً لوقوعها في أيدي الأفغانيين أو أية قوى عسكرية أخرى يمكن أن تشكل خطراً على الدولة العثمانية. وقد تحرك حسن باشا بالفعل فسيطر على مناطق واسعة منها كرمنشاه وما حولها، وشرع بالتقدم نحو همدان، إلاّ أن وفاته المفاجئة حالت دون فتحها، فجرى تكليف ابنه أحمد باشا، وكان والياً على البصرة، بقيادة جيش أبيه لإكمال المهمة التي أوكلت إليه، وقد تم له فعلاً الاستيلاء على همذان وقصبات عديدة أخرى، بجيش قدر عدد خيالته بـ 12000مقاتل، عدا المشاة، وقبائل كردية وعربية كثيرة، وولاة أخرين، مع كمية كبيرة من الذخائر والمعدات[1].

وأثبت قادة هذا الجيش، وأكثرهم من المماليك الذين ربّاهم حسن باشا وابنه أحمد باشا في المدارس العسكرية الخاصة التي أنشأها، مدى كفاءتهم وإخلاصهم لقيادتهم، وشدة انضباطهم. ولاح للجميع بأنه لولا أولئك المماليك لما حقق الجيش كل ذلك النجاح في أرض لم يكن قد وطأها من قبل، وفي ظل ظروف طبيعية ومناخية قاسية، وفي ضمن مساحات واسعة، وعبر طرق إمداد طويلة.

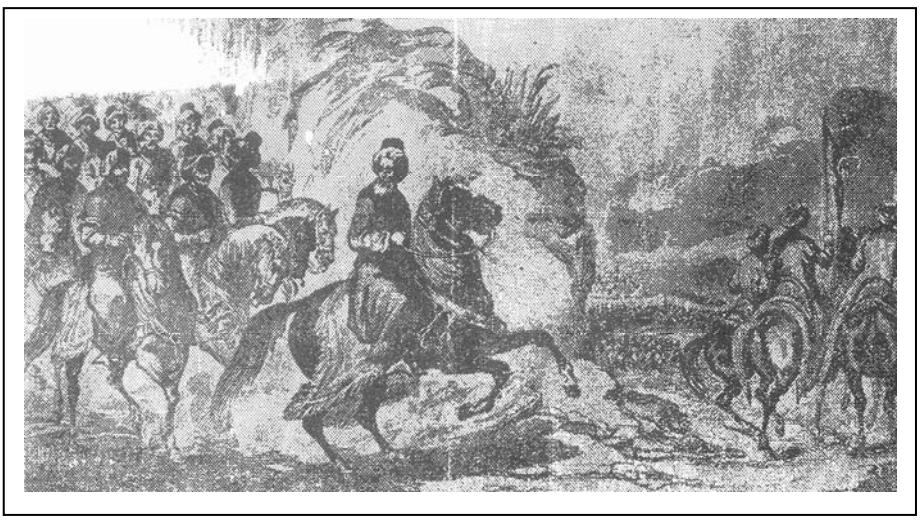

والي بغداد أحمد باشا تحيط به حاشيته (من رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترجمه عن الألمانية سعاد هادي العمري)

(1) حديقة الوزراء ص172– 209 ودوحة الوزراء ص 16 وعباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ، بغداد 1954، ص241.

وكان أكثر الناس إيماناً بهذا الواقع، أحمد باشا نفسه، فقد رأى فيهم نجاح التجربة التي بدأها أبوه حينما استقدم أولئك المماليك أطفالاً قبل جيل واحد تقريباً، فها هم الأطفال قد كبروا، وحذقوا أساليب القتال، ولم يصبحوا قادرين على الحرب فحسب، وإنما على إدارة شؤون الدولة، بما عُرفوا به من إخلاص، مقروناً بتوفر مستوى مُوحَّد من التعليم الذي يؤهل لتسلم المناصب المهمة.

فارس مملوكي سنة 1810 عن موقع ويكيبيديا

ولما لم يكن ثمة ولد ذَكَر لأحمد باشا مؤهّل لتولي الولاية من بعده، فقد بات من المعقول أن يتولاها أحد أقرب المماليك وأكثرهم إخلاصا في نظره، إلاّ أن انتقالاً للسلطة كهذا، كان يستلزم غطاءاً شرعياً، أو مبررات شكلية قوية تقنع سائر المماليك بالولاء لزميلهم الذي سيجري اختياره والياً عليهم.

وكانت ثمة مؤشرات عدة تشير إلى اختيار سليمان أغا، ذلك المملوك الشجاع النابه، لتولي هذا المنصب، أهمها إناطة مسؤوليات مهمة به، ثم اختياره لشغل منصب (الكَتْخُدا)[1]، وهو أهم منصب في الولاية بعد الوالي نفسه، ويتولى صاحبه

(1) اصطلاح مركب، بمعنى صاحب الدار، وقد يخفف الى كاهيه، وكهيه، وكخيا، أطلق على ممثل محلة من المحلات أمام الحكومة، وعلى رئيس مجموعة حرفية أو اجتماعية، إلا أنه

مساعدة الوالي في تصريف شؤون الحكم كافة، فضلاً عن كونه المرشح الأول لتولي منصب (الوالي) بعده، وبخاصة في الولايات التي تتولى فيها السلطة أسر وراثية حاكمة. ويذكر الرحبي أنه «ولاه على ما في تحت كفالته من عراق العرب لتدبير عشائر العُربان، وأصناف أهل البلدان، فنهض بذلك رشيد السيرة، حميد السريرة، عادل الطريقة، فاضل الخليقة، خليقًا بالوكالة على الحقيقة، وعمَّ به الأمن والسكون»[1]

ولا شك في أن زواجاً يجري عقده بين هذا المرشح، وبين كبرى بنات أحمد باشا، من شأنه تقديم المُبرِّر الكافي لتأسيس أسرة حاكمة حقيقية، تتولى مقاليد السلطة في بغداد وراثة، وهي تجربة لم تكن لها سوابق في تاريخ الولاية منذ قرون، وكما كان يحدث في بعض الدول في العصور القديمة، كان الزواج المذكور يمثل (زواجاً مَلَكياً) بكل معنى الكلمة[2]، فعن طريقه انتقلت السلطة فعلاً الى ذلك الزوج السعيد، بحسبانه سيؤسس أسرة حاكمة جديدة.

ويقدم لنا عبد الرحمن السُويدي، عند حديثه عن هذا الزواج، وصفاً شائقاً لعادلة خاتون، فهي جميلة، ذكية، ذات أخلاق حسنة، فيقول «زوَّج [أحمد باشا] في السنة الخامسة والأربعين [ومائة وألف] ابنته دُرّة الغوّاص، وظبية القنّاص، صالحة وقتها وزمانها، وزاهدة عصرها وأوانها، كريمة الشمائل، جميلة الخصال، ذات الجمال الباهر، والكمال الظاهر، والحلم الوافر، والعقل المتكاثر، والحَسَب الذي أربى على غَمدان، وناف على الخَوَرْنَق وسَهلان، العفيفة المُتدينة، ذات الأخلاق الحَسَنة عادلة خانم»[3].

وقال محمد سعيد بن عبد الله السويدي (المتوفى بعد سنة 1204هـ/1789م) وهو يتابع سيرة سليمان باشا أبو ليلة[4] «ثم لم يزل يترقى في نظر سيده حتى

اختص في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) بوكيل حاكم الولاية. وانظر قائمة بكتخدائية بغداد في كتابنا الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد 1992، ص 81–82.

(1) محمود بن عثمان الرحبي: بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان، الورقة 43.

(2) انتبه الرحبي إلى المعنى السياسي لهذا الزواج فقال إنه «زواج الملكات الأملاك»، الورقة 43.

(3) حديقة الزوراء ص 230.

(4) عُرف بأبي ليلة لحملاته الليلية في مطاردة الخارجين عن القانون. قال مؤرخ موصلي نظنه ياسين العمري «إن العرب كانت تسميه أبو ليلة، لأنه قصد يوماً قطاع الطرق، فقطع بيوم وليلة مسيرة سبعة أيام». روضة الأخبار ص25

عمله سلاح دار، وفي أسرع مدة عمله خزنه داراً[1]، ثم رأى له قابلية لمصاهرته، فزوَّجه أكبر بناته وأجملهن وأفخرهن وأكملهن وأسخاهن، بل أسخى نساء عصرها، بل فاقت على أغلب الرجال، حتى قلت صدقاً لا مبالغة: إن كل أحدٍ مبالغته تزيد على مشاهدته إلا شجاعة سليمان وسخاء المُترجَمَة، فالمشاهدة أكثر من مبالغة المبالغة»، وقال «هي العالمة العارفة العليمة الكاتبة، أم الخيرات، وصاحبة المبرات، الدُرّة المصونة، والفريدة المكنونة، عادلة خانم بنت الوزير أحمد باشا المذكور، ضُوعفت له الأجور، فعقد نكاحها عليه، وعمل لها أفراحاً وزينة ما عهد مثلها إلا لبنات السلاطين، فحظي بها المُترجَم، وحَظي عند سيده الوزير المذكور بمكانة رفيعة»[2]. ووصفها الرحبي بقوله «الزهرة الغراء»[3]، ونقل الدروبي أنها «كانت امرأة صالحة مُحبة للخير، عفيفة النفس، كريمة الخُلق والخَلق»[4].

دور متعاظم

وشاء الله أن تُكدِّر صَفو حياة الزوجين حوادث جسام، وظروف مُدلهمَّة، فلم تكد تمضي أشهر قليلة على حفل زواجهما، حتى هاجم نادر شاه بجيوشه الكثيرة مدن العراق الرئيسة، وحاصر بغداد سنة 1156هـ/1747م، لتجري في ضواحيها معارك حامية، دافع فيها البغداديون عن مدينتهم بكل بسالة[5]، ولكن الأعمال العسكرية توقفت إثر فشل نادرشاه في تحقيق أيٍّ من أهدافه، وتوقيع الطرفين، الإيراني والعثماني، معاهدة الصلح سنة 1160هـ/1747م، وانتهت تماماً باغتيال نادرشاه في معسكره في 11 جمادى الآخرة من السنة نفسها . وكان أول تباشير ذلك الاستقرار تزويج أحمد باشا ابنته الصغرى عائشة خاتون من أحد كبار

(1) الخَزنَدار: اسم وظيفة مركب من خزينة ودار الفارسية، وتعني ناظر خزينة الولاية، وبما أن شاغل هذا المنصب في عراق المماليك هو من المماليك المدربين، فإنه كان يرأس في حالة السلم قوة عسكرية تقدر بمائتي رجل من نوع (إيج أغاسي)، أي أغوات الداخل.

(2) ورود حديقة الوزراء ص37-38.

(3) بهجة الإخوان الورقة 43.

(4) فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 338ب.

(5) المصدر نفسه ص343- 355 ودوحة الوزراء ص 30 و عزي: مرأى التواريخ، الأوراق 156 و173 و209.

ضباطه أحمد أغا في سنة 1160هـ/1747م،[1] فأقيمت «الأفراح والمهرجانات في كل مكان لهذه المناسبة السعيدة»[2]. وقد اقترن هذا الحادث السعيد بتعيين سليمان باشا متسلماً للبصرة أواخر جمادي الآخرة 1161هـ/ أواخر تشرين الأول 1748م فسافر اليها ليتولى منصبه الجديد، وبالطبع فقد التحقت به زوجته عادلة خاتون[3]، لتعيش في البصرة بضعة أشهر قبل أن تعود الى بغداد.

وجاءت وفاة أحمد باشا في السنة نفسها إيذاناً ببدء مرحلة جديدة ومهمة في حياة عادلة خاتون، فوفقاً لما أراد الوالي المذكور سعى سليمان باشا (آغا سابقاً) إلى منصب (والي بغداد)[4] جاعلاً هدفه الأول توطيد الأمن وإزاحة الفوضى التي خلفتها حروب نادر شاه من قبل. إلا أن الدولة كانت لها وجهة نظر أخرى، فقد عينت لهذا المنصب والياً محنكاً هو الحاج أحمد باشا الصدر الأسبق، وإثر فشل الأخير في السيطرة على فوضى قوات الينكجرية (الإنكشارية)، جرى اختيار خلف له هو أحمد باشا الكسريه لي، بينما اختير سليمان باشا والياً على البصرة، ومع أنه كان تواقاً لتولي بغداد، فقد قبل منصبه الجديد على أمل أن يكون مجرد مقدمة لحكم بغداد، وتمكن بالفعل أن يقنع السلطات العثمانية بجدارته بهذا المنصب[5].

ويذكر مؤرخ معاصر لذلك العهد، هو محمد سعيد السويدي، أن سليمان باشا أضطر إلى أن يعد العدة لمغادرة البصرة إذا ما اقتضت الظروف الصعبة ذلك، ولكن المشكلة كانت تتمثل في الحريم المكون من زوجته عادلة خاتون وأختها عائشة خاتون، و(خانمات)[6] أخريات في البصرة، فما كان منه إلا أن «عين سفناً لحريمه المحترم»، مع نساء كثيرات وأطفال، بهدف الاعداد للرحيل عن البصرة بسرعة،

(1) حديقة الزوراء ص584 وديوان عبد الرحمن السويدي، ص77-78.

(2) دوحة الوزراء ص93.

(3) ياسين العمري: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، ص183.

(4) صدر امر تعيينه اواسط محرم 1162هـ/ أوائل كانون الثاني 1749م ودخل بغداد (وكان قبل ذلك متسلماً للبصرة) في 29 شوال من السنة نفسها/ 12 تشرين الأول 1749م.

(5) وصفها الرحالة هويد بأنها «المتكبرة الطموحة»، رحلة من ساحل مالابار ص137 بينما يصفها اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ترجمة محمود كبيبو، لندن 2009، ص 323، بأنها «الطموحة جداً».

(6) جمع للكلمة التركية (خانم) بمعنى السيدة.

ورتب لحماية الجميع جمعاً من خيرة فرسانه تحت قيادة تابعه الأمين أحمد أفندي الكتخدا، وعيَّن حاكما للبصرة[1] يتولاها في أثناء غيابه، وتقدم هو بقواته شمالا حيث عسكر في منطقة القُرنة عند ملتقى دجلة بالفرات. ولأمر ما قرر العودة بقواته إلى البصرة، حيث لبث فيها نحو شهر كامل، ثم غادرها مسرعاً على رأس تلك القوات إلى بغداد، وكانت بغداد عهد ذاك تحت حكم واليها المُعَيَّن محمد باشا الترياكي. وسعياً من الأخير لعرقلة وصوله، وإيذائه، فإنه أمر قبودان شط العرب مصطفى باشا بالقبض على أحمد أفندي الكَتخُدا وأتباعه وأن يسجنهم، كما أمر بالقبض على عادلة وعائشة وسائر أتباعهما، وبسجنهم أيضاً، ومصادرة أموالهما «لجانب الدولة»، وكان غريباً فعلاً أن يلقى القبض على النساء، فضلاً عن نساء الولاة والمسؤولين، في غيبة أزواجهن، فضلاً عن مصادرة أموالهن، ولا شك في أن عادلة خاتون كانت تعيش آنذاك ظرفاً عصيباً في البصرة، فزوجها سليمان باشا غادر المدينة على رأس معظم قواته، وأعوان الوالي الترياكي ما زالوا فعالين وذوي نفوذ، وقادرين على تنفيذ أوامر سيدهم[2].

عَيَّن الترياكي القبودان قائم مقاماً للبصرة، أي حاكماً عليها، ليترك له صلاحيات محاصرة أتباع سليمان باشا بالطريقة التي يراها أكثر ملائمة للحظة الراهنة، وكانت خطة القبودان تقضي بمحاصرة المجموعة المكونة من عادلة خاتون وشقيقتها وأتباعهما من الخدم والسيدات الأخريات فضلا عن عددٍ كبير من الأطفال، للحيلولة دون مغادرتهن البصرة باتجاه بغداد، ثم ألقاء القبض عليهن وحبسهن ليكُن رهائن بيده يفرض من خلالهن شروطه على سليمان باشا.

ويصف السويدي تلك اللحظات العصيبة التي عاشتها عادلة خاتون قبل رحيلها عن البصرة فقال أن القبودان مصطفى باشا، الحاكم على البصرة من طرف والي بغداد الترياكي باشا شاور أعيان البصرة وأعيان أوجاق الينكجرية (الإنكشارية) على حبس أحمد أفندي، وتوقيف (الخانمات) و«ضبط أموالهم»، فبعض الأعيان أشار عليه بالصبر وتأخير ذلك»، بينما أشار عليه آخرون بالهجوم

(1) هو أحمد أفندي البرزاني، ويظهر من لقبه أنه كان كردياً.

(2) ورود حديقة الوزراء ص50.

عليهم فوراً، ومال هو إلى الرأي الأخير، فحاصر بقواته جماعة عادلة خاتون وأتباعها، ودام الحصار أياماً، وشن المهاجمون هجمات عدة في كل أيام الحصار، فكانت خسائرهم أفدح من خسائر المحاصَرين. وأبدى أحد أتباع (الخانمات) ويدعى (أمير بك) بسالة منقطعة النظير في إيقاع الخسائر لدى قوات مصطفى باشا، واضطر الأخير إلى قطع مياه نهر العشار لأضعاف ارادة الصامدين، الذين اضطروا إلى الانتظار في حصار دام خمسة أيام أخرى.

ضابط انكشاري

وأظهرت النخبة من الفرسان التي أنيط بها حماية النسوة شجاعة فائقة في منع اتباع القبودان من السيطرة على الموقف في البصرة، وعلى حي (العشار) الذي كان يضم الحريم، وتولى الكتخدا أحمد أفندي قيادة أولئك الفرسان، واستطاع بما أوتي من ضروب البسالة الدفاع عن النساء، ويظهر أن هجوماً كان يستهدف عادلة خاتون بالذات، اقتضى من الكتخدا الشجاع أن يفتديها بنفسه. وتمكنت قوة الحماية من انقاذ الحريم ونقلهن بسرعة إلى السفن التي كانت متأهبة للإقلاع إلى

بغداد، وكان بصحبتهن «عسكر على قدر ما يكفي للحماية». وفي 3 محرم سنة 1163هـ/13 كانون الأول 1749م أقلعت السفن نحو بغداد[1].

محلة العشار في البصرة حيث حوصرت عادلة خاتون

وفي تلك الأثناء كان سليمان باشا قد وصل بقواته إلى الحلة حيث اصطدم بقوات كان قد أرسلها والي بغداد محمد باشا الترياكي، واستبسل سليمان في التعرض على أعدائه الذين كانوا يفوقونه عدداً وعُدّة، ونجح في تحقيق نصر حاسم عليهم[2]، وعندها وصل الأمر السلطاني بتعيينه والياً على بغداد، فأرسل هو -على الفور- أمره بإعدام القبودان. ثم تحرك باتجاه بغداد. وفي يوم الأربعاء 29 محرم 1163هـ/8 كانون الثاني 1750م التقى الموكبان في ناحية (سلمان باك) جنوب بغداد، حيث تقع المدائن، فنزلت عادلة خاتون بموكبها النهري إلى البر، بينما وصل سليمان باشا بقواته إلى هناك، وجرى «استقبالهم جميعاً بزينة معتبرة فدخلت الحريم بغداد»[3]، وذلك في غرة صفر من ذلك العام، وقيل في الثاني من ذلك الشهر، وقيل: في 2 صفر سنة 1163هـ / 11 كانون الثاني1750م[4]

(1) المصدر نفسه ص51.
(2) المصدر نفسه ص60- 61.
(3) المصدر نفسه ص 75، 75 .
(4) عباس العزاوي: المساجد والمدارس، مخطوط، نقلا من تاريخ عبد الله الفخري المعاصر، المسمى تاريخ نشاطي، بالتركية

وكان دخولهن بمثابة أعلان للخصوم بعزم سليمان باشا على الاستقرار في الحكم على رغم أنوف أعدائه[1].

الحلة حيث انتصر سليمان باشا على التریاكي

وقد أطنب المؤرخون في تصوير قوة سليمان باشا وحزمه في إدارة البلاد، وفي قدرته على اتخاذ القرارات المناسبة في أثناء الأزمات[2]، وفي حبه للعمران، وتعزيزه لنظام المماليك[3]، إلاّ أن مؤرخاً واحداً منهم لم يذكر دور تلك السيدة القابعة في

(1) تعهد سليمان باشا بإلايفاء بديون أحمد باشا فأرضى بذلك الدولة العثمانية، وبالمقابل فإنه تعهد بإيفاء ديونه للتجار الذين سبق أن استدان منهم أحمد باشا في أثناء حربه في إيران، فأرضى بذلك سائر الأطراف، ومن ثم جرى توجيه ولاية بغداد له سنة 1163هـ، أما التریاكي فقد عُزل بسبب تمرد الينكجرية، وعجزه عن السيطرة على الأوضاع، ويرى عزي أن المماليك كانوا وراء اثارة دوافع هذا التمرد، ثم أنه عين والياً على جدّة وتوفي هناك في العام التالي. ينظر عزي: مرأى التواريخ، الورقة 234 وتكشف الوثائق الرسمية العثمانية عن مقدار رضا السلطات العثمانية عن سياسة سليمان باشا بحيث كان يجري تجديد ولايته في كل عام دون أي عراقيل، ينظر الآرشيف العثماني، دفاتر مهمة، دفتر 155، ص492 في أواسط رمضان 1166هـ، ودفتر 155، ص291، في أواسط شوال 1165هـ ودفتر 155 ص118 في أواسط شوال 1164هـ، ودفتر 155 ص108 في أوائل شوال 1164هـ، ودفتر 155 ص194 في اوائل شوال 1167هـ، ودفتر 158 ص119 في أواسط شوال 1169هـ، ودفتر 159 ص235 في اواسط ذي القعدة 1170، ودفتر 160 ص213 في أوائل شوال 1171هـ.

(2) يقول الكركوكلي، دوحة الوزراء 131، انه كان يقمع الفتن بكل جسارة واقدام، مما جعل الجميع يهابون سطوته ولا يجسرون على الخروج عليه.

(3) ذكر جودت أن سليمان باشا «اشترى كثيراً من المماليك وعلمهم الجندية واستعمال السلاح واستخدمهم في جميع الأمور الخصوصية في دائرته وفي سائر المصالح، ثم قام بسد باب

قصرها، في التأثير على الحوادث، وفي اتخاذ القرارات. ولا نشك في أن سبب ذلك السكوت يعود إلى موقف المؤرخين السَّلبي من تناول أحاديث النساء، مما أشرنا إليه في مقدمتنا لهذا الكتاب. إلا أن رجلاً واحداً، غريباً عن أهل البلاد، كان يعيش في تلك الأثناء في بغداد، لاحظ أهمية الدور الذي تضطلع به هذه السيدة وقوة نفوذها في البلاد، وهيمنتها على كبار موظفي الولاية، ذلكم هو الرحالة الألماني الأصل، كارستن نيبور Carsten Niebuhr، الذي كان قد دخل بغداد في خريف سنة 1765م (1179هـ) ولبث فيها حتى الأول من آذار سنة 1766م (19 رمضان 1179هـ)، فقد أورد هذا الرحالة، في كتاب رحلته، ما يدل على أن هذه السيدة الحازمة كانت وراء أكثر قرارات زوجها حزماً، وربما كانت المُوجِّهة الرئيسة لسياسته، فكشف من ثمَّ ما أراد المؤرخون المحليون السكوت عنه في كتاباتهم. وردّد رحالة انكليزي هو وليم هويد William Heude أقام ببغداد، سنة 1817م، أي بعد نحو نصف قرن، ما لبث يتسمّعه الناس عن قوة هذه السيدة ومدى هيمنتها على شؤون الولاية فضلا عن شؤون زوجها. فبعد أن أثنى على سليمان باشا ذكر أن موضوع التذمر الرئيسي منه هو «احترامه الكبير لرغبات زوجته عادلة خاتون ابنة أحمد باشا»[1].

لم تنسَ عادلة خاتون، وهي زوجة والي بغداد سليمان باشا، أنها ابنة سيد زوجها ومالكه السابق، الوزير أحمد باشا مُوَطد حكم المماليك في العراق، وحفيدة الوزير حسن باشا مؤسس ذلك النظام وباذر بَذرَته الأولى. ويظهر أن سليمان باشا نفسه لم يكن لينسى تلك الحقيقة، ولا يَبعُد أنه شعر بشيء من النقص تجاه زوجته الجميلة لهذا السبب. فهذا ما يفسر اطلاق يدها في شؤون الحكم، مع ماعرف عنه من كفاءة وقدرة على تصريف تلك الشؤون، وفي الواقع فإن مجمل القرائن المتوفرة، من شخصية قوية، واعتداد مطلق، وتجارب متنوعة، وشعور بالتفوق، كان يؤدي إلى تجاوز حد التدخل في شؤون الحكم، إلى المشاركة الفعلية في إدارة حكومة الولاية. ولو كان الأمر مقتصراً على قبول توسُّط بعض الناس

نفوذ ذوي البيوت الموجودين في تلك الجهات واستبدادهم واشتدت وطأته حتى أنه لم يتمكن لأحد أن يرفع رأسه سواء كان من طوائف العربان أو من الأمراء الأكراد» أحمد جودت، تاريخ جودت، ج1، ترجمة عبد القادر الدنا، بيروت، ص377.

(1) رحلة من ساحل مالابار ص137.

لديها لنقل رغباتهم إلى الوالي، أو التدخل في تعيين موظف أحياناً أو عزله، لما بدا الأمر خارجاً على المألوف، فتلك أدوار تؤديها نساء الولاة في ذلك العصر عادة، وهو ما كان يجري في قصر الوالي، ولا يصل خبره إلى عامة الناس إلا نادراً، أما أن يصل أمر ذلك اليهم، حتى يصبح مَثار انتقادهم – كما يذكر نيبور- [1] فهذا ما يؤكد أن الأمر كان يتجاوز كل نطاق مألوف عهد ذلك. ويذكر الرحالة الإنكليزي هويد «أن هذه السيدة لم تكد لتنسى أن زوجها – على الرغم من المنزلة الكبيرة والرفعة التي وصل إليها- كان يوماً ما عبداً لوالدها»[2].

نيبور بالزي اليمني

ويمكن القول بأنه لم تكن لدى عادلة خاتون، في عهد سليمان باشا، أهداف خاصة بها، مستقلة عن سياسة زوجها، وإنما كان هدفها هو التعبير عن شخصيتها في المشاركة في حكم البلاد. ومن المحتمل أن كثيراً ما أُثر عن زوجها من قرارات كان من وحي تأثيرها، أو أنها كانت – في الحقيقة- قراراتها هي. ألم يُطلق يدها في الحكم طيلة مدة ولايته، وجعلها الآمرة الناهية في جميع الشؤون دون أن يتدخل هو في أي منها، حتى عُدّت «كلمتها هي العليا»؟ وعلى الرغم من وصفه بالاستبداد والقوة، أليس هو الذي كان يسمح لها بنقض قراراته جميعاً، فضلاً عن

(1) نيبور: رحلة، ص59.

(2) رحلة من ساحل مالابار ص137.

قرارات مساعديه (الكَتْخُدائيين) على ما في ذلك من إثارة لمشاعر الناس، ولا سيما هؤلاء؟ بيد أن مشاركة عادلة خاتون في إدارة البلاد، لم تكن تُعبّر دائماً عن ضعف في شخصية زوجها، بقدر ما كانت دليلاً على تقديره لآرائها، واحترامه لأسلوبها في العمل، والنماذج القليلة من أعمالها- مما وصلنا خبره- تؤكد ما ذهبنا إليه، إذ خلت تلك الأعمال من أي طابع شخصي خاص، وجميعها مما يمكن عده أعمالاً عامة تأتي في خدمة النظام كله.

ففي ظل تعدد الولاءات، وتضارب مصالح الموظفين الكبار، وتردد زعماء القبائل في تأييد النظام، كان لابد من تكوين تكتل شعبي يسند الحكم ويدعمه، ولقد أخذت عادلة خاتون على عاتقها المضي في تلك المهمة الصعبة، فسعت إلى كسب تأييد الأغوات (وهم الضباط والموظفون الكبار) الذين عليهم يقوم النظام السياسي والعسكري للولاية، وزعماء القبائل العربية، وهم الذين كانوا يمثلون الرديف الاحتياطي لجيش الولاية أو الساند له، وذلك بأنها كانت «تأمر زوجها بتقديم الهدايا من الفراء (فروة، وكُرُك) للأغوات، والعباءات ذوات الأكمام القصيرة إلى الشيوخ»، بل أنها سعت إلى تكوين ما يشبه أن يكون تنظيماً ينتظم في سَلكه أولئك الموظفين والضباط (الأغوات) الكبار الذين أثبتت الحوادث كفاءتهم ومدى اخلاصهم لأبيها أحمد باشا وجدها حسن باشا، فكانت تهدي هؤلاء أغطية للرأس (الكُوفيّات والغُطَر)[1] من الحرير، التي تُنسَج خصيصاً لهذا الغرض حتى يتميزون عن غيرهم في أثناء الاحتفالات والمهرجانات الرسمية، وكان الحصول على تلك الهدايا يُعد تشريفاً لهم ينالون بها احترام الناس. ويذكر الرحالة هويد أن عادلة خاتون كانت تُرسل عادة إلى القادة الذين كانوا قد قدّموا خدمات لجدها حسن باشا أو لوالدها، شريطاً حريرياً مطرزاً لكي يلف حول الرأس لتمييز من يضعه عمن جاء بعدهم في مناصب عليا، ومعطف من الفرو، وكان هؤلاء يدفعون مبالغ مالية كبيرة مقابل تلك الهدية الثمينة في معناها[2].

(1) الغُطَر جمع غُطرة، أو غُترة، وهي قطعة من نسيج تُوضع على رأس الرجل وتتدلّى إلى كتفيه، وقد يُوضع فوقها عقال، وتكون بيضاء عادة، أو تطرز حوافيها بتطريزات خفيفة، وواضح أن ما كانت تهديه عادلة خاتون هو من النوع المطرز، بدلالة ما سيصرح به هويد فيما يأتي في أعلاه.

(2) رحلة من ساحل مالابار ص137.

ولاستكمال شكل التنظيم، والاتصال المباشر بالناس فقد عَمَدت عادلة خاتون الى عقد اجتماعات خاصة، أو تحديد أيام خاصة بالمقابلات من كل أسبوع، تلتقي فيها بالناس، من وراء حجاب، وتستمع لشكواهم وتحكم بينهم بنفسها، وبقدر ما كانت هذه الاجتماعات واللقاءات تزيد من نفوذها، وتقوي مركزها فإنها كانت إحدى وسائلها للاتصال بالناس مباشرة، ومعرفة كل ما كان يدور في البلد[1].

ويذهب لونكريك S.Longrigg إلى تصور أن عادلة خاتون قد أسست جمعية منظمة لأتباعها المقربين الذين كانوا يُعرَفون بشارات حريرية خاصة بهم[2]، وان اجتماعاتها الدورية كانت خاصة بتلك الجمعية، وانها «كانت تستقبل في بيتها الزائرين من الجنسين»[3]. وزاد ريجارد كوك R.Cooc قوله أنها أسست مجلساً (صالوناً) كانت تتصدره ويحضره جمع من المُعجبين بها من الجنسين، وكان الحاضرون فيه يتميزون باتخاذ شارة خاصة بهم[4].

وبالطبع فان تصوير لونكريك وكوك للأمر على هذا النحو فيه أثر واضح لخيال أوربي معاصر. وإلاّ فلم يكن مقبولاً على الإطلاق اجتماع الرجال والنساء في أي مجلس كان، فضلاً عن مجلس ترأسه زوجة الوالي نفسه. ويذكر هويد أن طالبي مقابلتها كانوا ينتظرون في غرفة صغيرة ملحقة بالحَرَم (الملكي) حيث يوجد غلام يتمتع بثقتها ويتولى تسلم الطلبات وتقديمها إلى سيدته ثم يعيد الجواب، بينما ذكر هوار Clément Huart أنها كانت «تعقد المجالس لتقدم لها فيها العرائض على يد وسيط من الأغوات»[5]، وبهذه الطريقة كانت تعرف كل ما يجري، وكان لها من حرية اتخاذ القرار أنها لم تكن تتردد في نقض القرارات السابقة أيضاً.

ومن ناحية أخرى، فإن نيبور صَرّح بالطريقة التي كانت تخاطب بها الرجال. فقال : وكانت عادلة خاتون لا تظهر للناس علانية إتباعاً للتقاليد المفروضة آنذاك

---

(1) نيبور، ص60.

(2) ليست هذه الشارات إلا (الغُتَر) التي تقدم وصفها.

(3) لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، الطبعة 4، ص 123.

(4) كوك: بغداد مدينة السلام، ترجمة د. مصطفى جواد وفؤاد جميل، ج2، بغداد 1968، ص 89.

(5) دائرة المعارف الإسلامية، ج15 ص476 مادة (عادلة خاتون).

على كل سيدة مسلمة، ولذلك فقد كانت تقف في مَخدعها وتكلم الناس من وراء حجاب، وعن طريق أحد مماليكها[1] الذي كان يحمل لها عرائض الشكوى ويأتيهم منها الجواب عليها أيضاً.

وأوجز لوريمر الأمر بقوله: تأثر سليمان باشا كثيرا بزوجته عديلة (عادلة) خاتون التي كان لها مجلس تستقبل فيه الخبراء، وتتدخل في الحياة العامة، وجعلت لنفسها وساماً خاصاً يتكون من شريط حريري يلف حول الرأس[2].

دور سياسي وعسكري

لم يقتصر دور عادلة خاتون على المشاركة الفعلية في الشؤون الإدارية للولاية، وإنما امتد على الجانب العسكري أيضاً، فبحُكم إمساكها بمقاليد السلطة الفعلية، وهيمنتها المطلقة على شؤون الحكم، فإنها أنفذت حملة كبيرة يقودها زوجها الوالي نفسه للقضاء على تمرد سليم باشا البابانى حاكم إمارة بابان[3] (مركزها: بلدة قلاجوالان على أحد فروع الزاب الأعلى). ويذكر نيبور أن عادلة، في إنفاذها تلك الحملة، كانت تنتقم لأبيها والي بغداد أحمد باشا الذي توفي أثناء حمله له لضرب ذلك البابانى، في منطقة دلّي عباس (المنصورية حالياً) سنة 1160هـ/1747م[4].

---

(1) ويعرف بحرَمَ كهيا سي، ويسميه نيبور رئيس بلاط حرم الباشا. وقد استقر العُرف على أن باب حرم الباشا يعد ملجأ آمناً يحتمي به من تطلبه السلطة، «وهو ملجأ حصين لا تنتهك حُرمته». فريزر، جيمس بيلي: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834م، بيروت2006، ص189. ونرى أن اسم هذا الموظف هو بشير آغا، صاحب الوقفية الحافلة التي وقفها على جامع العادلية، ينظر الملحق رقم 5.

(2) دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ديوان أمير قطر، القسم التاريخي، قطر 1975 ص1783.

(3) هو سليم باشا بن بكر بك بن الفقيه أحمد، والأخير هو مؤسس الإمارة البابانية، وقد تولى سليم باشا إمارة بابان أول مرة في 1156هـ/1743م ولبث فيها أميراً حتى تاريخ توجيه هذه الحملة. كلوديوس جمس ريج: رحلة ريج في العراق عام 1820 ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد 1951، ص315، 319 وانظر توفيق قفتان: ميزووي حوكمداراني بابان له قه لاجوالان، بغداد 1969، ص61-62.

(4) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج5 ، بغداد 1953، ص281.

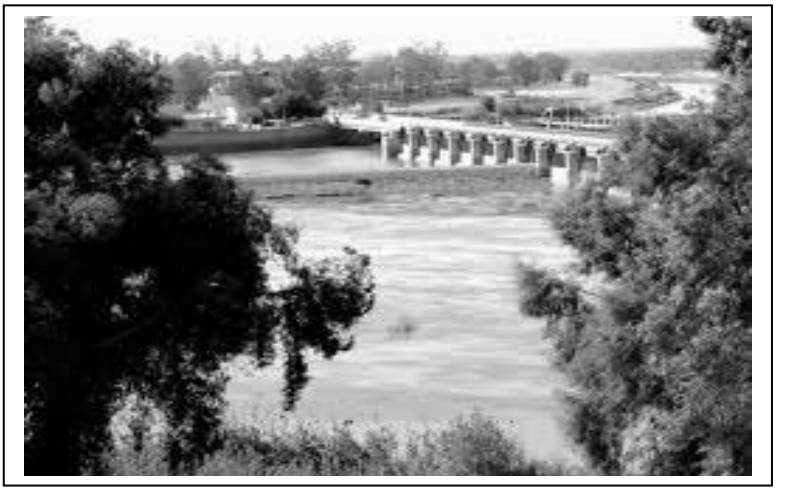

دلي عباس حيث توفي أحمد باشا أبو عادلة خاتون

ولا نظن القول إلاّ من نوع كلام العامة الذي التقطه نيبور من أفواه من قابلهم أثناء إقامته ببغداد وإلاّ فإن الحملة تأتي في سياق الأعمال العسكرية التي يستوجبها توطيد الأمن في البلاد، وإقرار سلطة الدولة. والأمر كان يتجاوز رغبة سيدة في الانتقام لأبيها، إلى أن يكون عملاً موجهاً ضد حركة تمرد حقيقية، فقد كان نادرشاه قد نجح في إثارة الانقسام بين أفراد البيت الباباني الحاكم، واستمالة سليم باشا ضد ابن عمه، حاكم بابان الشرعي خالد باشا، وفي الوقت الذي أبدى فيه الأخير المقاومة، انضم سليم إلى نادرشاه، فعينه هذا أميراً على بابان مكان خالد المذكور، الذي اضطر إلى التخلي عن الحكم ومغادرة البلاد إلى استانبول، فصارت البلاد «في صورة واحدة من الممتلكات الإيرانية»، واستمر سليم بك في ولائه للإيرانيين حتى بعد مصرع نادرشاه، إذ شرع في تأليب متصرف كويسنجق وحرير عثمان باشا على التعرض إلى بعض مضافات بغداد، ودعا إلى الانفصال والاستقلال، «وراح كلاهما يصولان ويجولان في المنطقة الكردية ويستوليان عليها شيئاً فشيئاً»[1]، وهكذا صار عليه أن يواجه حملة عسكرية كبيرة خرجت من بغداد يقودها أحمد باشا بنفسه لتحاصره في قلعة (سَرُوجَك)[2]، فاضطر للإستسلام

(1) المصدر نفسه والصفحة. وينظر: عزي: مرأى التواريخ، الورقة 226.

(2) تقع سروجك في السفح الجنوبي لجبل (كروكجاو) في محافظة السليمانية وتبعد عن مدينة السليمانية بنحو 60 كم، وهي ناحية تابعة لقضاء شاربازار.

للأخير، وحينذاك اصطحبه أحمد باشا إلى بغداد ليمكث فيها سجيناً[1]، بينما تمت محاصرة متصرف كوي سنجق عثمان باشا وشقيقيه ابراهيم وسليمان في حصن من أعمال كويسنجق حيث جرى اعدامهم هناك[2]، وتذكر بعض المصادر أن سليم باشا اضطر إلى اللجوء، بأتباعه، إلى الأراضي الإيرانية[3].

فهي حركة انفصالية اذاً تجد لها عوناً من الحكومة الايرانية عبر الحدود المشتركة بين الدولتين، وكان أمر القضاء على الحركة مهماً لأن من شأنه أن يعطي درساً للزعماء المحليين الآخرين لكيلا يستغلوا انصراف الدولة لمحاربة الأعداء الخارجيين، فيقومون بإرباك الوضع الأمني في البلاد، أو القيام بحركات انفصالية مشابهة. وفي الواقع فإن إجراء عادلة خاتون كان حازماً لايقاف التداعي الذي قد ينذر بعواقب أكثر خطورة. وقد نجحت الحملة بالفعل في القضاء على المتمردين.

ويذكر نيبور أن سليمان باشا استطاع بعد عدة محاولات أن يقضي على سليم باشا الباباني، وذلك بعد أن أرسل إليه «التأكيدات الكافية على إخلاصه وصداقته، وأرسلت له عادلة خاتون كوفية من الحرير تأكيداً لهذه الصداقة ودليلاً على عفو الباشا والصفح عنه»، وأن سليم باشا حينما وصل إلى بغداد متأثراً بتلك الوعود «قبض عليه وأُلقي في السجن ثم خُنِق في اليوم الثاني»[4]، وبينما يذكر نيبور أن عادلة هي التي كانت تُحرِّض زوجها على الانتقام لها من سليم باشا،

(1) حديقة الزوراء ص591–593، ودوحة الوزراء ص94 ومجهول: روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار، بتحقيقنا، السليمانية 2010، ص28–29 ومحمد أمين زكي: تاريخ السليمانية، ترجمة جميل بندي الروزبياني، بغداد 1951، ص26.

(2) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة 155، ص118.

(3) مرأى التواريخ ص 117، ويفهم من قصيدة لعبد الرحمن السويدي يمتدح فيها سليمان باشا ابو ليلة أنه طوى القفار قاصداً سليم باشا وعثمان باشا البابانيين، فداهمهم سحراً، وحاصرهم، وفتح معقلهم، وأسر سليم المذكور بعد أن "أتوا به". ديوان عبد الرحمن السويدي، بتحقيقنا والحاج وليد الأعظمي، ص21–86، وتنظر أيضاً قصيدته التي نظمها على لسان والده ص87–89. بينما ذكر ياسين العمري أن حملة سابقة قادها سليمان باشا والي بغداد سنة 1162 للقضاء على سليم باشا الباباني وعثمان باشا السوراني وقوج باشا إلا أنه فشل في ذلك إذ علم "أن لا طاقة له بلقاء الأكراد فلم يخرج من بغداد". الدر المكنون، الورقة 299.

(4) نيبور ص 61.

يشير القنصل البريطاني في بغداد كلوديوس جيمس ريج Claudius James Rich إلى أن سليم باشا شُنق في بغداد بمكائد دبرها له قريبه سليمان باشا بن خالد باشا البابانى حاكم قلعة جوالان سنة 1171 هـ / 1757م[1].

وعلى أي حال، فإن تهمة التعاون مع الأجنبي كانت سبباً كافياً للحكم عليه بالإعدام، ولم يكن في الأمر اغتيال أو غدر، بدليل ما يذكره ريج بأنه قتل شنقاً، ولو كان الأمر خلاف ذلك لقُضي عليه بطعنة نجلاء، أو رصاصة من بندقية مختبئة، أو بالخنق في الأقل كما يذكر نيبور. وفي الواقع فإن أمر «تأديب كل من سليم باشا وعثمان باشا وترتيب جزائهما» كان قد تقرر في استانبول وتم ابلاغ سليمان باشا والي بغداد به في أواسط شوال من سنة 1164هـ/5 أيلول 1751م[2]، وتتحدث وثيقة متأخرة عن قيام سليمان باشا بـ(إعدام) سليم باشا البابانى وليس عن اغتياله[3].

ويشير نيبور أيضاً، فيما نقله عن أفواه من التقى بهم في بغداد، إلى عداءٍ كان مستحكماً بين عادلة خاتون وشقيقتها الصغرى عائشة خاتون، حتى أنها حرّضت زوجها سليمان باشا على قتل زوج أختها أحمد آغا ففعل. وسبب هذا التحريض – كما يذكر نيبور نفسه– هو اتهام أحمد آغا بالتدبير لمؤامرة يُغتال فيها سليمان باشا ويُنصّب هو والياً على بغداد، وكنا قد أعلنا شكّنا في هذه الرواية[4]، لتضمنها، كما رأينا في حينه، مآخذ عدة، منها أن وزيراً لم يذكر اسمه[5]، حَرَّض أحمد آغا فعلاً على التآمر على سليمان باشا، وأن أحمد آغا نفى تلك التهمة، وهو أمر منطقي ليدرأ عنه العقوبة التي تنتظره من جراء فعلة كهذه، فلا يحتاج الأمر الى تحريض اذاً. ثم أن تصميم عادلة على قتله، لمجرد انه زوج اختها التي

(1) رحلة ريج ص319.

(2) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة 155، ص113.

(3) دفتر مهمة 162 ص393، بتاريخ أواسط ذي القعدة 1175هـ/8 حزيران 1762م.

(4) في الطبعة الاولى من كتابنا هذا ص30

(5) يظهر من سياق كلام نيبور انه (القابُوجي باشي) ذلك الموظف الذي كان يرسله السلطان للتخلص من الولاة غير المرغوب فيهم، وكان أحمد باشا قد تخلص من واحد منهم قبل هذا، كما في رحلته ص56.

تخاصمها، فيه قسوة متناهية لا مبرر لها، وميل للايقاع بأقرب الناس اليها، والسبب الذي أشير اليه لا يكفي لاقناع أحد بأنها هي التي دبَّرت ذلك أو دَفَعَت اليه، اللهم إلاّ إذا كانت التهمة حقيقية فعلاً، ومن ثم يكون عقابه قد جرى بأمر من الوالي مباشرة.

ومما رجّح ما ذكرنا، على ما تصورنا، أن علاقة سليمان باشا بأحمد آغا كانت طبيعية للغاية، فلو لم تكن ثم مبررات قوية لما أقدم الأول على قتله، هذا ما ذهبنا إليه. إلا أن رواية ساقها محمد سعيد السويدي توضح سبباً آخر ربما كان أكثر وجاهة، وهو حقدها على أحمد أفندي بسبب انتقاداته اللاذعة لها، ولزوجها سليمان باشا لاحترامه إياها ونزوله عند رغباتها، فكان «يَصدُر منه إنكارٌ على الباشا من توقيره لعَدلة خانم وإطاعته لها فيما تريد»[1]. وتوافَق كُرهها إياه مع رغبة «أرباب الأغراض» في التخلص منه، وهم الذين كانوا يخشون مجيئه إلى الحكم خَلَفاً لسليمان باشا نفسه بسبب عدم وجود وريث للأخير يمكن أن يتولاه بعده، ولم تكن سياساته وأعماله لترضي هؤلاء وهو كَتخُدا (نائب) له، فكيف يكون الأمر في حال توليه الولاية من بعده. ويذكر السويدي أن عادلة (طَبَقَت معهم) وهو تعبير بغدادي يُراد به أن رغبتها طابقت رغبتهم في التخلص منه، فما كان من سليمان باشا إلاّ أن دبَّرَ له مؤامرة لقتله خنقاً وهو في رحلة صيد.

وكشف الرحالة الفرنسي أوليفيه Olivier سرِ تغير سليمان باشا على كَتخُداه وإعدامه إياه فقال أن الباشا، يعني سليمان باشا، تسلَم من أحد وكلائه في استانبول رُزمة من الرسائل كان أحمد آغا يرسل بها إلى الباب العالي يطلب فيها أن يحل محل من أحسن إليه، يعني سليمان باشا، ولدعم طلبه فإنه كان يتحدث عن مواهبه بكبرياء، بل أنه وعد بأن يزيد مقدار الضريبة الاعتيادية في حال تعيينه والياً، وأخبر بأن سليمان مصاب بمرض نفسي سينتهي به إلى الموت. وهو ما دفع بسليمان إلى الاقتناع بضرورة معاقبته والتخلص منه بإعدامه[2]. فقتله كان موضوعاً أخطر من أن يكون بتدبير عادلة أو بتحريضها فحسب، وإنما هي

(1) ورود حديقة الوزراء ص81- 82.

(2) رحلة أوليفييه ص120- 121.

نتيجة لمؤامرة حاكها أحمد آغا وجرى الكشف عنها باستانبول، هذا فضلا عما قدّمناه من أسباب أخرى. أما هويد فيذكر أن الباب العالي هو الذي حرضه على التخلص من سليمان، وأنه أبى ذلك، ولكن الأمر بدا وكأنه راغب فيه[1].

ووصل خبر موته إلى زوجته عائشة خاتون، فساءها الدور الذي أدّته عادلة في التخلص منه، ورفضت مقابلتها. ويذكر السويدي أن عائشة لما بلغها الخبر «حَرَدت على أختها ولم تقابلها أكثر من سنة»، على أن الأخيرة سعت إلى استرضائها «لكونها جارت وتعدت على أختها بقتل زوجها فمضت إلى بيتها وصالحتها واعتذرت وعادت صداقتهما، فبعد ذلك كل اسبوع تدعو أختها وتلاطفها».

ويذكر السويدي أيضاً، معتمداً رواية شقيقته العالمة المُحدِّثة رقية، أن عادلة خاتون حثت شقيقتها بعد مدة من مقتل زوجها أحمد آغا على الزواج ثانية قائلة «أنت صبيّة ولابد من أن نُزوِّجك»، وأن عائشة خاتون اشترطت أن يجري اختيار زوجها من بين مماليك أبيهما أحمد باشا، وليس من مماليك سليمان باشا زوج عادلة، حتى «يتعادل في المملوكية» مع سليمان باشا نفسه، ولا يكون أقل منه مكانة، فوافقت عادلة على ذلك، وجرى اختيار عمر آغا، وهو واحد من أثنين بقيا من مماليك أحمد باشا، زوجاً لها، وهكذا كان. والرواية على هذا النحو تثير إشكالاً تاريخياً، لأننا نعلم أن عائشة تزوجت، بعد مقتل أحمد آغا من علي آغا، وعلي هذا توفي اغتيالاً، بعد أن أصبح والياً لبغداد سنة1177هـ/1763م ، أما عمر آغا فقد تزوج منها بعد هذا التاريخ بالطبع، فيكون الحديث الذي سجله السويدي يختص بعلي لا بعمر، وقد توفيت عادلة خاتون ولما تزل شقيقتها عائشة على ذمّة عمر باشا.

وكان سلوك علي آغا المناوئ لعادلة خاتون سبباً في نقمتها عليه، فقد سعى للقضاء على أقرب المقربين إليها، وهو أحمد أفندي (وهو غير أحمد آغا المتقدم)[2]

---

(1) رحلة من ساحل مالابار ص128.

(2) إن محمد سعيد السويدي واضح تماماً في فصله بين شخصيتي أحمد آغا وسميه أحمد أفندي المسمى الداماد، أي الصهر، يعني زوج عائشة خاتون، فالأول أمر سليمان باشا بقتله في خزينة السراي ببغداد، والثاني قتل في خيمة في اثناء الصيد، وورود حديقة الوزراء ص

وذلك بكتابة (التقارير) المفضية إلى اعدامه، وواضح أنه أراد بذلك تحديها وإهانتها والحط من مكانتها، إذ«حطّ على ذم أحمد أفندي بشيء يصل إلى قتله»، وكان أحمد أفندي هذا من مماليك أبيها «وهو محكوم لهم وخادم»، فضلا عن تقديرها لموقفه حينما دافع عنها «وفداها بنفسه» وكانت في البصرة آنذاك بانتظار اللحاق بزوجها سليمان باشا إثر تعيينه والياً على بغداد. وقد أصرَّت عادلة خاتون على سليمان باشا بعزل علي آغا وقتله، إلاّ أن الباشا رجا منها تخفيف الحكم، فـ «سلب نعمته سلباً مهولاً»، وسلمه لأحمد أفندي، وقد أصبح هذا كَتخُدا، فعاقبه بأن «جعله تحت يد الطباخ بملبوس رديء، وظيفته يُقشِّر البصل، وبقي مدة على ذلك»[1]، ولا نشك في أن علي اغا أحفظ في نفسه حقداً على عادلة خاتون، جزاء إهانته، وهو ما سيتجلى من موقف حين تولى ولاية بغداد فيما بعد.

والغريب أن أحمد أفندي هذا سرعان ما خرج على طاعة سيدته، فـ« انقلب من مروءته المحمودة إلى العكس» فسعى في قتل كل من محمد أفندي وولي أفندي. وكان أولهما يشغل منصب (كَتْخُدا) لزوجها سليمان باشا، وقد عُرف بقيادته حملة عسكرية تمكنت من القضاء على «خانات عظام وعساكر من الأعجام» كانوا قد توجهوا حملة كبيرة لاحتلال بغداد، وثانيهما كان كاتباً بليغاً شارك في الوفد الذي أرسله والي بغداد أحمد باشا للتفاوض مع نادرشاه لعقد الصلح سنة 1157هـ/1744م، ولم يكن ثمة دافع لقتلهما غير الحقد، فاستاءت عادلة خاتون من هذه الفعلة وعدتها جريمة تستحق العقاب، وقد فعلت. إذ طلبت من زوجها سليمان باشا قتله، فما كان من الأخير إلا أن حَبَسَه في القلعة، ثم نقله ليلا إلى خزينة السراي حيث أمر بقتله خنقاً، وأرسل به ليدفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي من بغداد[2].

80- 81، بينما تجعل المصادر الأخرى منهما رجلاً واحداً. العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ص19 نقلا عن تاريخ نشاطي.

(1) ورود حديقة الوزراء ص 76.

(2) المصدر نفسه ص81.

وكان يتولى منصب (كَتخُدا) الرفيع في بغداد آنذاك رجل يُدعى عبد اللّه آغا، وكان محسوباً على عادلة خاتون ويُعَد من أخلص أتباعها، وقد أمر سليمان باشا بعزله وعَيَّن مكانه رجلا من أتباعه هو، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن بادر بتحدي عادلة تحدياً سافراً دون أن يحسب لقدرتها ونفوذها لدى الباشا حساباً، ففي اليوم الأول من توليه منصبه «حَبَس أكبر المُتعلقين[1] على عادلة خانم حبس تَرزيل (أي حَبساً مع إهانة)، وضبط جميع تعلقاته من غير رضاها»، وأحسّت هي بمعنى هذا التصرف، وأنها هي المقصودة منه، فما أن حلَّ اليوم التالي حتى أطلقته وأعادت له أمواله المُصادرة، وفي اليوم الثالث «سعت بعزله عند الباشا» فنفَّذ الأخير طلبها في الحال، إذ عزله وأعاد عبد اللّه آغا إلى منصبه مكانه[2]، وهكذا خرجت عادلة خاتون من هذه المعركة القصيرة وهي أشد ثقة بنفسها وأكثر قدرة على مواجهات تحديات المماليك.

وجاءت وفاة والي بغداد سليمان باشا في أوائل سنة 1175هـ/ 1761م، لتنهي عهداً دام أربعة عشر عاماً، مارست فيها عادلة خاتون نفوذها المطلق، بيد أن وفاته لم تنهي ذلك النوع من الاشاعات عنها، ومفاد الاشاعة الجديدة أن عادلة خاتون شاركت بصورة غير مباشرة بقتل والي بغداد التالي، وهو علي باشا (1176- 1177هـ/1762- 1763م) الزوج الثاني لشقيقتها عائشة خاتون[3]، وتعيين (كَتخُداه) أي مساعده ونائبه عمر باشا[4] والياً مكانه، وتفصيل الأمر -

(1) المتعلقين اصطلاحا هنا: الأتباع.

(2) المصدر نفسه ص82.

(3) بعد وفاة سليمان باشا تولى بغداد بصفة قائمقام عثمان أفندي عصام الدين العمري، ثم تولاها بصفة متسلم والي شهرزور محمد أمين الجليلي، حتى ولاية علي باشا، ولم نسمع لعادلة خاتون دوراً في خلال حكم هذين الموظفين، وكان أولهما يحظى بعطف شقيقتها عائشة خاتون. ينظر ياسين العمري: الدر المكنون في المآثر الخالية من القرون، الورقة 303، وكتابه: غاية المرام ص184 وص343 .

(4) وكان علي باشا يومذاك متسلماً للبصرة وضابطاً للحسكة (الديوانية فيما بعد) وأما الكتخدائية الآخرون، فهم عمر، واسماعيل، وعبد اللّه، ورستم، وحسن، ومحمود، وكل واحد من هؤلاء يتمنى من قلبه ان يكون هو الخلف لسليمان باشا. الكركوكلي: دوحة الوزراء ص133 وج.ج. لوريمر: دليل الخليج، ص1803.

كما نقله نيبور- أن عادلة خاتون لما ضاقت ذرعاً بتجاهل علي باشا لها وعدم سماحه لها بالتدخل في شؤون الحكم، عملت على الإسراع بإنهاء حكمه، وذلك بتحريض مساعديه (كَتخُداواته، كَهْياته) على قتله بحجة أنه ينوي التخلص منهم واحداً بعد آخر[1]. وذكر الرحالة الفرنسي أوليفيه أن علي باشا « قتل بتحريضات عادلة خاتون ابنة أحمد باشا الكبرى»[2]، بينما ذكر هويد أن«هناك مجال للإعتقاد» بأن عادلة خاتون «كانت سبب ضياعه»[3]. ويجمل لونكريك الأمر بأن عادلة «لم يكن بوسعها أن تتحمل الحكومة التي يرأسها خادم آخر من خدام أبيها إلا بشرط أن يشاورها في كل شيء» وإنه لما لم يلبي رغبتها أكثرت من الكيد له «ذلك الكيد الذي كان الباشا معرضاً له في كل حال»[4].

كانت عادلة خاتون ترجو أن يكون لها، في عهد علي باشا، من النفوذ ما كان لها في عهد سلفه سليمان باشا[5]، بل أنها كانت تصرح علناً بأنها تملك ذلك النفوذ فعلاً، ولكن يظهر أنها لم تكن تقدر الاختلاف بين شخصية الواليين، فعلي باشا كان حُرّاً في مولده، وليس مملوكاً لأبيها، كما هو حال زوجها، ومن ثم لم يَرَ نفسه في موقع أدنى منها، و لم يلحظ لها دالّة عليه، هذا فضلا عن كراهيته لها بسبب موقفها السابق منه، فشرع يُجرِّدها من كل صلاحياتها السابقة، ولم تعد هي تطيق الجفاء الذي يبديه نحوها وتجاهله لوجودها ولمقترحاتها، حتى قيل أنه طردها- وهو الذي تربّى في بيت أبيها- طرداً عنيفاً، وكانت تتهمه بأنه يدبر لإبعادها عن بغداد[6].

وفي رأينا أن عادلة خاتون، لم يكن لها، بعد وفاة زوجها، من النفوذ ما يسمح لها

---

(1) رحلة نيبور ص62 ويشير لوريمر الى الحادثة مُصدِّراً أياها بقوله "ويُعتقد أن ..." وواضح أنه ينقل هنا اعتقاد نيبور نفسه. دليل الخليج، ص 1798- 1799.

(2) رحلة اوليفيه الى العراق، ترجمة يوسف حَبّي (بغداد 1988) ص102.

(3) رحلة من ساحل مالابار ص140.

(4) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص207.

(5) ذكر هوار أن السلطة أوشكت أن تفلت من يدي عادلة خاتون بعد وفاة زوجها سليمان باشا. مادة عادلة خاتون، دائرة المعارف الإسلامية ج15 ص476

(6) المصدر نفسه. ورحلة نيبور ص63 ولوريمر: دليل الخليج ص1798.

بتدبير أمر كهذا، لولا أن وافق ضيقها به حقد الكَتخُداوات على علي باشا وهو حقد كانت له أسبابه السابقة على توليه الحكم أصلاً، بل أنه استعر منذ لحظة توليه إياه، وأنهم دبّروا ثلاث مؤامرات في الأقل لاغتياله، فشلت الأوليان منهما، إلاّ أن قسوته في القضاء على زعماء قوات اليَنكَجَريّة (الإنكشارية) في بغداد[1]، هو الذي أثار مخاوف الكَتخُداوات من أن يكون دورهم هو التالي، فأسرعوا في تنفيذ مؤامرتهم الأخيرة التي انتهت بقتله[2]. وكانت عادلة قد نجحت في إثارة مخاوفهم، فحينما توفي أحدهم أشاعت أنه توفي مسموماً على يد بعض أعوان علي باشا، بل صوَّرَت لهم- بحسب نيبور وهويد- أنه عازم على القضاء عليهم، وأنه تسلم فرماناً من السلطان يقضي بذلك[3]. وفي الواقع فإن أسباب تدخل عادلة للتخلص منه لا تبدو مقنعة تماماً، وأهم تلك الأسباب أنها لو كانت راغبة في التدخل في شؤون الحكم لتدخلت فيه في عهد خلفه عمر باشا الآتي، وإنما فَضلَّت، وقد بلغت السادسة والأربعين من العمر، أن تتفرغ لما نهضت به منذ سنين قليلة لإنشاء مبرّاتها العديدة التي سيأتي الكلام عليها فيما بعد.

شجعت عادلة خاتون أختها على الزواج مرة أخرى، ورشَّحت لها أحد مماليك أبيهما أحمد باشا، وهو عمر آغا[4]، وسعت لترقيته ليكون كفؤا لها، وهكذا جرى

---

(1) ذكر الرحالة روسو أن علي باشا أذل هذه القطعات بعد أن جردها من معظم امتيازاتها. وأنه لم يكن يدفع لها مرتباتها، ويعاملها بقسوة، فخسر بذلك خدمة نخبة من الإنكشارية. جان بابتيست روسو: وصف باشوية بغداد، بغداد 2012، ص31، 33

(2) يقول رسول حاوي الكركوكلي إن اولئك الكتخدائية أغاضهم انتخاب علي باشا من بينهم وتعيينه والياً بدلاً من أحدهم، وراحوا ينصبون الحبائل والشراك منذ يوم توليه للايقاع به. وكان الحسد يأكل قلوبهم ويزداد حقدهم كلما ازداد علي باشا ثباتاً ورسوخاً في الحكم، دوحة الوزراء ص137.

(3) انفرد نيبور بالإشارة إلى مسألة الفرمان المزعوم. وأغفل لونكريك أية إشارة إلى مثل هذا الفرمان. وهو يسمي عادلة خاتون باسم (الأم- الملكة)، أربعة قرون ص207، مع أنها لم تكن أماً في الحقيقة، وإنما سماها هكذا اشارة إلى أنها كانت بمثابة الأم للمماليك الذين كانوا يدينون بتربيتهم وتدريبهم ومناصبهم لوالدها أحمد باشا، وللجيل الثاني من المماليك الذين تولوا مسؤولياتهم في عهد زوجها سليمان باشا.

(4) هذا ما صرّح به المؤرخ محمد سعيد السويدي نقلا من حديث هامس جرى بين عادلة وشقيقتها عائشة، نقلته إليه أخته رقية. ورود حديقة الوزراء ص81- 82، أما لوريمر فيذكر

تعيينه بمنصب (سَر بوّابين)، وعمر آغا هذا هو الذي سيُزوَّج من عائشة خاتون ويصبح والياً على بغداد في المدة من أواسط ذي الحجة 1177 إلى أواخر ذي الحجة 1189هـ (1761-1775م)[1].

وفي عهد عمر باشا هذا، توفيت عادلة خاتون في غرة محرم الحرام سنة 1182هـ الموافق 18 أيار سنة 1768م عن عمر تجاوز السادسة والخمسين عاماً، فدُفنت عند قبرَي أبيها أحمد باشا وجدها حسن باشا قرب ضريح الإمام أبي حنيفة في بغداد[2]، ولبث قبرها شاخصاً هناك حتى نقل متولو أوقافها رفاتها الى باحة المحكمة الشرعية التي عمرتها وأضافت إليها، ومنها إلى حجرة في مبنى المحكمة، عند إعادة بنائها سنة 1352هـ/1934م.

أما عائشة خاتون شقيقة عادلة خاتون فقد تزوجت بعد وفاة عمر باشا من عبد الله آغا المذكور، وقد أصبح والياً على بغداد في المدة من 1191-1192هـ/1775-1778م[3]، فكان هذا هو زوجها الرابع[4]، وبوفاة الشقيقتين انتهى عهد أسرة والي بغداد القوي أحمد باشا، فانطوت بذلك صفحة مهمة من تاريخ العراق الحديث.

أن مجلساً من الرؤساء في بغداد هو الذي اقترح اسم عمر باشا ثم صادق عليه الباب العالي، ولم يكن ذلك برضا عادلة خاتون. دليل الخليج، القسم التاريخي ص1798-1799.

(1) رحلة من ساحل مالابار ص138. وقد أخطأ هوار في تصوره أن عمر باشا هو أخو زوجها سليمان باشا، مادة عادلة خاتون، دائرة المعارف الإسلامية ج15 ص477.

(2) دفن أحمد باشا وابوه حسن باشا في الممر المؤدي من رواق المسجد إلى حجرة ضريح الإمام الأعظم. وليد الأعظمي: أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران، ص91. وذكر المستشرق كليمان هوار في ترجمة قصيرة لعادلة خاتون أدرجت في دائرة المعارف الإسلامية ج15 ص476 أن من غير المعلوم تاريخ وفاتها وكذا مكانها.

(3) نقل العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ص69، عن ياسين العمري أنه حكم لمدة سنتين من 1190 إلى 1192هـ(1776-1778م)، والصحيح أن ما حكمه لم يتجاوز أواسط شوال 1191هـ/ 2 تشرين الثاني1777م ، إذ تولاها بعده سليم أفندي بصفته قائممقاماً. كتابنا: الأسر الحاكمة ص72.

(4) ولم تنجب من أي من أزواجها الأربعة.

الفصل الثاني

مآثر ومبرات

ولعادلة خاتون مآثر ومَبَرّات كثيرة، ذات نفع عام، جعلتها في خدمة بيئتها ومجتمعها، ورصدت عليها العقارات الواسعة للإنفاق من وارداتها عليها، ولدفع رواتب العاملين فيها، من الأئمة والمدرسين والخطباء والمؤذنين والقراء والمُمَجِّدين والخدم والوعّاظ، فضلا عن الإنفاق على الخدمات العامة المتنوعة، ولذا فقد لبثت تلك الأعمال باقية، شاخصة، حتى عهد قريب، ومنها ما زال قائماً يؤدي مهمته إلى اليوم. وفي الواقع فإن ما أنشأته من مبرّات كان هي الباقيات الصالحات من أعمالها بعد وفاتها، أما ما كانت تقوم به يومياً من أعمال بر وخير، فذلك ما سجله معاصروها من المؤرخين، وشهد به بيتان من قصيدة كُتبت على جامعها المسمى جامع العادلية الكبير هما:

ومُطعمـــــةُ اليتامى والبَرايا وكاســـيةُ الأرامــلِ والعُــراةِ

تُجدِّد كل يوم فعـــــلَ خيرٍ ومنْ حُسنى صنيع الصالحات

وفي الأبيات الأخرى ما يفهم أنها كانت (أم صِلات) و (ذات هبات)[1].

ومن ذلك ما ذكره المؤرخ محمد سعيد السويدي من أنه حينما تزوج سنة 1168هـ/1754م «أرسلت عادلة خانم إليَّ النقد، وما تحتاج العروس والعُرس من كل شيء بالزيادة»[2]. وقد أثنى على سخائها ثناءاً جميلاً، فقال «أسخى نساء عصرها، بل فاقت على أغلب الرجال، حتى قلت صدقاً لا مبالغة: إن كل أحد مبالغته تزيد على مشاهدته إلا شجاعة سليمان وسخاء المترجمة»[3]. ويظهر أن أخبار سخائها قد جاوزت بغداد إلى مدن العراق الأخرى، فقد وصفها مؤرخ موصلي نظنه الشيخ ياسين بن خير الله الخطيب العمري بقوله «زبيدة العصر عدلة خانم»[4]

---

(1) خير الزاد ص206

(2) ورود حديقة الوزراء ص77.

(3) المصدر نفسه ص37.

(4) روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار، بتحقيقنا، السليمانية 2010، ص25.

ولرُبَّ سائل يتساءل عن مصادر الأموال التي اشترت بها عادلة خاتون تلك العقارات الدارّة، وفي تصورنا أنه لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلاّ بدراسة مصادر ثروة المماليك أنفسهم، فهذه الثروة تجمعت ليس من خلال رواتبهم المقننة، وإنما من خلال نشاطاتهم التجارية، أو اتصالهم بالبيوت التجارية التي كانت قد نشطت في ذلك العهد، على نحو يشبه أن يكون تحالفاً بين الإدارة والتجارة، فتحولوا خلال جيل واحد إلى طبقة اجتماعية لها ركائزها الاقتصادية، بعد أن كانوا- قبل ذلك- مجرد فئة عسكرية لا أكثر[1]. وقد نجح أولئك القادة من المماليك في تحويل ثرواتهم المنقولة إلى عقارات زراعية وتجارية، وقفوا معظمها على شؤون الخير، وتفسير ذلك أن وقف تلك الأراضي والعقارات كان يمثل السبيل الوحيد للمحافظة عليها من المصادرة، حيث جرت التقاليد المالية العثمانية عادة على مصادرة ممتلكات الولاة فور وفاتهم، ولم ترث عادلة خاتون من زوجها سليمان باشا شيئاً، لأن ثروته صودرت بعد وفاته مباشرة[2]، وإنما تمكنت من توظيف أموالها الخاصة توظيفاً حسناً بما مكنها من مضاعفة هذه الأموال بسرعة، فنشأ من جراء ذلك ما يشبه أن يكون مؤسسة مالية تجارية كبرى، تقف هي على رأسها، فتشرف على مُدخَلاتها ومُخرَجاتها، ومعظم ما تنفقه كان على شؤون الخير. وكان الرحالة هويد قد أشاد بجسامة ثروتها وأن لها «حسابات لا تحصى»[3].

ولم تتولى عادلة ادارة أوقافها فحسب، وإنما تولت بعض أوقاف زوجها سليمان باشا أيضاً، من ذلك أن الأخير اختارها متولية على ما وقفه من أوقاف على سقاية أنشأها جدها والي بغداد حسن باشا، على الطريق المفضي من الكرخ إلى قصبة الكاظمية، وتشمل حديقة (باغجة) تسمى حديقة السلسبيل، وحديقة

(1) بحثنا: طبقة التجار في العراق في عهد المماليك، الدور السياسي والثقافي، مجلة (ميزوو)، أربيل 2010، السنة 4، العدد 15، ص287-302.

(2) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة 162، ص392 في أواسط ذي الحجة 1175، فلا صحة إذا لما ذكره السائح هويد من أنها وجدت نفسها بعد وفاته وريثة ثروة طائلة، رحلة من ساحل مالابار إلى القسطنطينية ص138، لا سيما وأن أكثر أعمالها الخيرية كانت في حياة زوجها سليمان باشا.

(3) رحلة من ساحل مالابار ص138.

الحَرَم الملاصقة لها، والمحدودة بتكية البكتاشية[1] وبنهر دجلة، وذلك في 10 جمادى الأولى سنة 1171هـ/ 1775م[2].

فمن مبرّاتها المشهورة ما يأتي:

1- جامع العادلية الصغير

كان هذا الجامع يقع في المحلة التي عرفت (بالدنكَجيّة) من محلات الجانب الشرقي من بغداد[3]، فنُسب إليها[4]، وهو قريب من جسر بغداد الوحيد يومذاك (وقد أنشئ عنده سنة 1940، جسر المأمون المسمى منذ 1958 بجسر الشهداء) وأرضه داخلة اليوم في المرآب الكبير ذي الطوابق المتعددة المقابل للمتحف البغدادي (بناية الرصافي). شيدته عادلة خاتون سنة 1160هـ/1747م إحياء لذكرى والدتها كُلرُخ خانم.

وقد وصف الحاج أمين المُمَيِّز هذا الجامع، كما رآه في صباه، بما يأتي «هو يتكون من الحَرَم (يريد المُصلّى أو بيت الصلاة) والطارمة الواقعة أمامه، وغرفة الامام، وغرفة الخادم والمِرحاض. وتتوسطه حديقة صغيرة فيها ثلاث نخلات»[5].

---

(1) رباط قديم أنشأته السيدة سلجوقى خاتون زوجة الناصر لدين الله العباسي، المتوفاة سنة 584هـ/1188م، اتخذه اتباع الطريقة البكتاشية تكية لهم في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق، ولبثت تعرف باسمهم حتى الغاء هذه الطريقة، وجرف دجلة مبناها نحو سنة 1920م، قال عبادة «وكانت تقع في محلة الجعيفر إلى منتهى البلدة، وبعدها الصحراء». العقد اللامع ص481.

(2) سجل الوقفيات والحجج والإعلامات الشرعية المحفوظة في وزارة الأوقاف، السجل 1 ص137.

(3) يذكر الحاج أمين المميز، وهو الذي عاش سني طفولته وصباه في هذه المحلة بأنه سمع من الشيبة والعجائز انها نسبت الى جهاز يعرف بالدنك منصوب في دكان في عقد الصخر (قريب من سوق الصفافير حالياً) ويستعمل لتهبيش التمن، وهو عبارة عن صخرة كبيرة مشدودة الى ذراع طويل من الخشب يشبه العتلة، فيرفع الصخرة عدد من العمال ثم يهوون بها على التمن فتهبشه (أي تفصل السحالة عن حبات التمن الصحيحة) بغداد كما عرفتها، بغداد 1985، ص90.

(4) أشار السيد عباس بن رجب البغدادي إلى هذه المسجد باسم مسجد الدنكجية، وقال: وهو معمور، ومن آثار المرحومة عادلة خاتون. نيل المراد في أحوال العراق وبغداد، فصل نشرناه في كتابنا (مساجد بغداد في كتابات الأجداد) ص45.

(5) بغداد كما عرفتها ص 180-181 ولما تزل هذه النخلات باسقة في موضعها ولم تمسها يد القطع، على الرغم من ازالة الجامع نفسه، وكان ذلك بسعي محمود بذله المرحوم الاستاذ

النخلتان المتبقيتان من ثلاث نخلات كانت في باحة جامع العادلية الصغير (تصوير زين النقشبندي)

ووصفه في مفتتح هذا القرن السيد محمود شكري الآلوسي بقوله: «هو مسجد صغير حَسَن الوضع، قرب الجسر اليوم في الجهة الشمالية منه، وهو من المساجد التي تقام فيها الجُمع والأعياد وسائر الصلوات، وقد تداعى للسقوط فجدد عمارته متولي أوقافه سنة ثمان عشرة بعد الثلثمائة والألف (1900م)»[1].

وقال السيد محمد سعيد الراوي: «هو جامع صغير واقع على يسار السالك من سوق الصّفارين الى طريق الجسر عند منتهى الدرب الواقع أمام بناية مطبعة

الحاج أمين المميز لدى أمانة بغداد في حينه لتبقى شاهداً على مكان ذلك الجامع الشريف (من المؤسف أن احدى النخلات الثلاث قد قطعت قبل صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسنين قليلة).

(1) مساجد بغداد وآثارها، بتهذيب الشيخ محمد بهجة الآثري، بغداد 1341هـ، ص45-46.

الحكومة.[1] وهو جامع مشتمل على مصلى وصُفّة أمامه، وحجرتين عند مدخل الباب على يسار الداخل متجهة بابهما نحو القبلة. ويُدار هذا الجامع من قبل المتولي الذي يلي أوقاف جامع العادلية الكبير، وهو أيضاً من أبنية المرحومة صاحبة الخيرات عادلة خاتون بنت الوزير فاتح همدان أحمد باشا، وزوجة المرحوم الوزير الخطير سليمان باشا صاحب الخيرات رحمة الله عليهم أجمعين. وكان قد تداعى للسقوط فعمَّره مُتوليه إذ ذاك إبراهيم أفندي المعروف بالمُمَيِّز ابن صالح بك[2] وذلك في سنة 1318هجرية جامعاً تقام فيه الجُمع والجماعات، وهو من الجوامع الحسنة، لما اشتمل عليه من حُسن البناء وجمال الوضع، وعيَّن فيه إمام وخطيب ومؤذن وخادم، وهو تحت إدارة المتولي[3] أحد أولاد ابراهيم افندي المميز المذكور»[4].

وكانت على باب هذا الجامع لوحة من الرخام، كتبت عليها ثمانية أبيات دالية، تؤرخ بناءه بحساب الجُمّل، وقد طُمست معالم البيتين الأولين منذ زمن بعيد، وبقيت الأبيات الستة التالية، وسجلها الآلوسي[5] وعباده[6] والراوي[7] على النحو الآتي:

لقد أشبَعَتها الحادثاتُ وردّها ... إلى صدف الأجداث بعد السنا الردى

فعمَّر أهلوها لها أيَّ مسجدٍ ... على غير تقوى الله لن يتشيَّدا

أمانٌ ولا خوف، ورُشد ولا عمى ... وخيرٌ ولا ضرٌ، به أشرق الهُدى

فصَفوا به صَفو القلوب ولم يَزل ... تراه لأبصار المُصلّين أثمدا[8]

فلما زهى بنيان باب دخوله ... لنا وجلى ماءٌ لضمآن من الصدى

---

(1) هي البناية التي شغلتها مطبعة الحكومة ثم أصبحت مقرا لمديرية الآثار العامة، وقد أصبحت منذ 1970 متحفاً للموروث البغدادي باسم (المتحف البغدادي).

(2) الصحيح أن إبراهيم المميز هو ابن محمد بك.

(3) هو المرحوم عبد الجبار بك بن إبراهيم المميز.

(4) خير الزاد ص233

(5) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص45.

(6) العقد اللامع ص274.

(7) خير الزاد ص234

(8) الاثمد هو حجر الكحل الذي يجلو البصر.

هنـاك اقتبسنا آية الذكر أرخوا لرب السَّما الهادي أدخلوا الباب سُجَّدا

(1161)

إلاّ أن من المؤسف أن تُرفع هذه اللوحة هي أيضاً بعد تعميره الذي سبق إزالته كلية. وإذ تشير الأبيات المذكورة الى أن أهل سيدةٍ ما قد عمَّروا لها هذا المسجد[1]، فإن أبيات أخرى بالتركية، كانت قد حُررت على رخامه وضعت فوق مصلاه، صرحت بأن تلك السيدة هي كُلرُخ خاتون، وإن ابنتها السيدة عادلة خاتون هي التي عَمّرت الجامع إيفاء لحقوقها عليها. وعجز التاريخ هو: (فبَنتْ للّه داراً للعِباد الصالحين). وحسابه: سنة 1168هـ.

وهذه الأبيات، هي إحدى روائع ما خطته يد الخطاط المُجوِّد إسماعيل الأنوَري البغدادي[2]، من كبار خطاطي بغداد في القرن الثاني للهجرة (18م)، ولم يكن مصير اللوحة بأفضل من سابقتها، فقد أزيلت منذ عهد بعيد[3]، وانفرد عبادة بتسجيل ما كان عليها من أبيات.

ونلاحظ أن الوقفية المؤرخة في غرة جمادى الأولى سنة 1162هـ/19 نيسان 1749م على جامع العادلية الصغير تضمنت تخصيص راتب يومي لمحافظ المكتبة، وذكرت عناوين بعض الكتب في التفسير والفقه وغير ذلك، فضلاً عن المصاحف الشريفة، مع أنها خلت من اشارة الى وجود مدرسة، او مدرس، وليس في نص

(1) ظن المرحوم السيد محمد رؤوف الشيخلي ان السيدة التي تشير إليها هذه الأبيات هي عادلة خاتون نفسها، وعليه فقد ذهب إلى أنها توفيت قبل سنة 1161 ولكنه لم يستطع تفسير الإشارة إليها بوصفها على قيد الحياة في الأبيات التي على جامع العادلية الكبير المبني بعد الجامع الصغير المذكور، فقال أن تواريخها بعد تاريخ هذا الجامع الصغير لم يذكر فيها وفاتها بل العكس يؤكد أنها على قيد الحياة، فمن يحل لنا هذا المشكل؟، المعجم الجغرافي لمدينة بغداد القديمة بين سنة 1270- 1360هـ، البصرة 1977، ص87، قلنا: وسبب هذا اللبس أن المؤلف المذكور لم يرجع إلى الأبيات التركية التي تصرح باسم كُلرُخ خاتون.

(2) هو السيد إسماعيل بن مصطفى الأنوَري البغدادي، أخذ الخط عن كبار خطاطي عصره، وسافر الى استانبول للأخذ عن خطاطيها، وتوفي هناك في شهر رجب سنة 1189هـ/ 1775م. انظر ترجمته في وليد عبد الكريم الأعظمي: جمهرة الخطاطين البغداديين ج2، بغداد 1989، ص595-596.

(3) تحطمت هذه اللوحة في أثناء تعمير الجامع سنة 1320هـ/1902م.

الوقفية التالية (المؤرخة في سنة 1171هـ/1175م) ما يدل على وجود مكتبة في هذا الجامع، وإنما صرّحت بوجودها في جامع العادلية الكبير حيث توجد مدرستها، فلعل الواقفة نقلت كتبها الى ذلك الجامع بعد حين. وكان عباس العزاوي قد اشار إلى وجود مدرسة في هذا الجامع، سماها (العادلية الصغيرة) لكننا لم نقف على احد من مدرسيها[1].

تولى صالح بك بن إبراهيم أفندي المعروف بالمُمَيِّز تعمير الجامع بعدما تداعى إلى الخراب جميعه، وأحدث من قسم منه خاناً رغبة في ازدياد ايراد الجامع. وقد حرر على المحراب الذي في الطارمة قوله تعالى (كفى بالله شهيداً. محمد رسول الله سنة 1320). وعلى محراب بيت الصلاة قوله تعالى (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) [آل عمران 37].

وعرف الجامع في اوائل القرن الرابع عشر للهجرة (أواخر القرن 19م) باسم جامع دنكجيلر، أي جامع الدنكجية، نسبة إلى الدرب الذي كان يعرف بهذا الاسم، وقد تقدمت الإشارة إليه[2].

وعلى الرغم من التعميرات التي قام بها متولو الوقف، فإن قراراً صدر بإزالة الجامع من الوجود، لغرض توسيع شارع المأمون الذي يفضي الى جسر المأمون (جسر الشهداء الحالي)، فكان أن نقض الجامع برمته، وأدخلت أرضه في الشارع المذكور وذلك في سنة 1924. وفي سنة 1382هـ/ 1963م قام متولو الوقف، بإنشاء جامع جديد، أكبر سعة، وأفخم بناءً، على القطعة ذات العدد 6/6 مقاطعة 38 من أرض بستان الصرافية في محلة الصرافية (حي الأطباء حالياً) في الجانب الشرقي من بغداد، تبلغ مساحتها 2873متراً مربعاً، ويشغل الجامع منها نحو 1500م مربع، وهو يتسع لنحو أربعمائة مصلي، ولأنه من أوقاف عادلة خاتون أصلاً، عُرف هذا الجامع باسم هذه السيدة المحسنة[3].

---

(1) تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ص334.

(2) كتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة ص133.

(3) تولى تصميم الجامع المهندس الحاج عبد الله الصغير، وتولى الإشراف على تشييده المرحوم المهندس عبد الغني شندالة رئيس المهندسين في الأوقاف المتوفى شهيدا سنة 1970م.

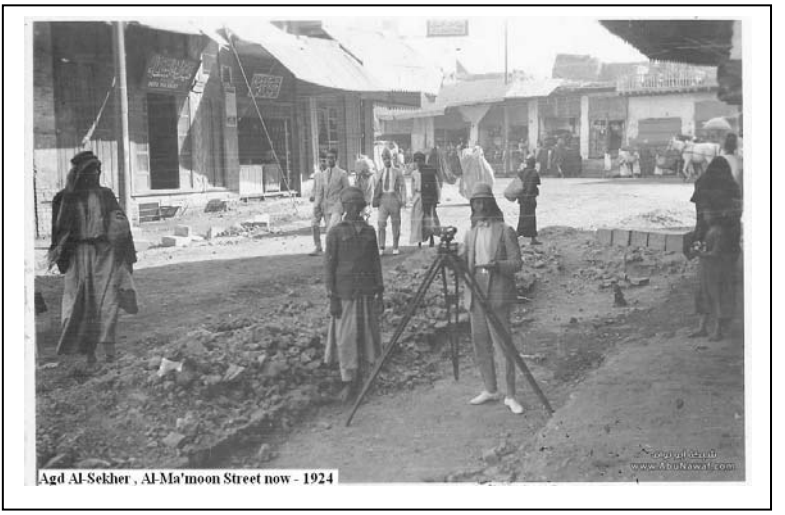

توسعة شارع المأمون التي كانت سبباً في نقض جامع العادلية الصغير

وللجامع قبة ومئذنة ومغسل ومنزلين للإمام والخطيب، فضلاً عن مقر لجمعية الآداب الإسلامية[1]، ومقر للمركز الإقرائي العراقي لتحفيظ وتجويد القرآن الكريم، ومقر آخر للرابطة العالمية الإسلامية للقراء والمجوّدين. وأنشئت إلى جانبه قاعة كبيرة للمناسبات الدينية والإجتماعية. وتقع الباب الرئيسية في جهة الشمال، وهو مبني بالآجر الاعتيادي المكسو بالآجر الأزرق، وقد كتب في أعلاه ما نصه

(مسجد السيدة عادلة بنت أحمد باشا جددته مديرية الأوقاف العامة سنة 1382هـ/1962م)

كما يوجد باب آخر صغير بالجانب الشمالي الشرقي كتب في أعلاه بالكاشاني ما نصه (جامع عادلة خاتون 1382هـ/1967م). وأمام بيت الصلاة طارمة تقوم على ستة أعمدة أسطوانية من الكونكريت تعلوها عقود مزخرفة على الطراز الأندلسي. وفي أعلى الطارمة إفريز كتب عليه بخط بديع الآيات الكريمة من قوله تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ

(1) جمعية خيرية ثقافية تأسست في أيلول من سنة 1946.

فَضْلِه وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ) (سورة النور، الآيات 36 – 39)

ويبلغ عرض الطارمة خمسة أمتار وطولها عشرون متراً، وبجوار الطارمة المصلى الصيفي وهو مربع الشكل تبلغ مساحته (20 في 20 متر) ويتوسطه محراب بديع الشكل مبني من الآجر الأصفر والآجر المزجج بالأزرق كتب في أعلاه الآية الكريمة (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) سورة المؤمنون آية 1–2.

وأما الحَرَم، أو بيت الصلاة، فهو مستطيل الشكل يبلغ عرضه أحد عشر مترا وطوله ثمانية عشر مترا وفي جدرانه الأربعة نوافذ كبيرة، وفي وسط الحرم أربعة أعمدة أسطوانية من الكونكريت تقوم فوقها قبة الجامع، وقد كسيت من خارجها بالآجر المزجج الملون، وتقوم بجوارها مئذنة جميلة يبلغ ارتفاعها نحو عشرين مترا.

أما محراب الحَرَم فهو مبني من الطابوق الأصفر والآجر المزجج بالأزرق كتب في أعلاه الآية الكريمة (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (سورة البقرة 144) وهي بخط الخطاط هاشم محمد البغدادي[1]. وله منبر من خشب الساج، والطارمة والمصلى الصيفي مرتفعان على ساحة الجامع نحو نصف متر. وتقع بالجهة الشرقية من الحرم حجرة طويلة للإمام والخطيب أمامها حديقة جميلة، وبالجهة الغربية من الحرم توجد ثلاث حجرات ومتوضأ ودورة المياه، وبالقرب منها حديقة أخرى. ويدار الجامع من قبل الأوقاف بعد تصفية الوقف. وهو مفتوح وتقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة.

(1) الخطاط العراقي الشهير ولد في بغداد سنة 1339هـ وتوفي فيها سنة 1393هـ/1973م.

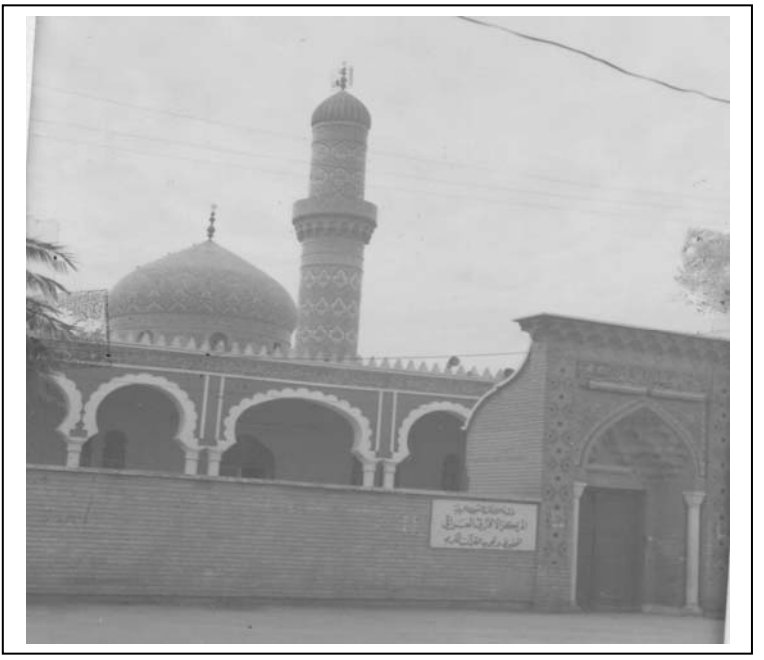

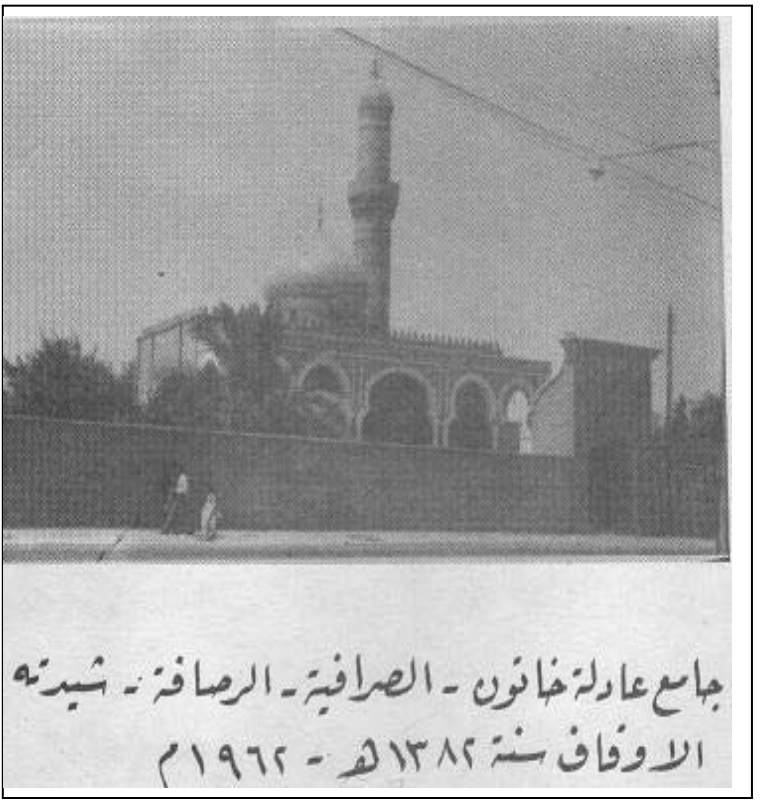

جامع عادلة خاتون - الصرافية - الرصافة - شيدته
الاوقاف سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

مدخل مصلى جامع العادلية الصغير الجديد

الرواق الأمامي لجامع العادلية الصغير الجديد

2- جامع العادلية الكبير

أنشأته السيدة عادلة خاتون في السنوات 1163- 1168هـ/ 1749- 1754م كما دلت على ذلك الكتابات التي فيه، أي بعد سنوات قلائل من شروعها بإنشاء جامعها الصغير. وقد نال الجامع عناية فائقة في عهد مؤسسته.

ووصفه السيد محمود شكري الآلوسي بقوله: «فيه مصلى واسع ومنارة شامخة، وفيه مدرسة في الطابق الذي فوق الباب، وخزانة كتب، وبعض الحُجَر. أنشأته صاحبة الخيرات والمبرّات عادلة خاتون بنت أحمد باشا الذي تولى إيالة بغداد اثنتا عشر سنة وذلك من سنة تسعة واربعين ومائة وألف الى السنة الحادية والستين[1]، وكان زوجها أحد موالي أبيها، وهو سليمان باشا.. وكانت هي من أهل التقوى والصلاح مُحبَّة لأهل العلم والزهد كثيرة الصدقات. ولوالدها مآثر مبرورة ومساعٍ مشكورة، وهو الذي حافظ بغداد وقاوم نادرشاه ملك الفرس من استيلائه على العراق .. وكان الفراغ من عمارة هذا المسجد ومدرسته سنة ثمان وستين مائة والف.. وهذا الجامع الى اليوم مشيد الأركان، رصين الجدران، تقام فيه الجمع والأعياد، وفيه مدرس وخطيب وإمام ومؤذن وخدم، مفروش مصلاة بأحسن الفرش، له أوقاف كثيرة»[2].

ووصفه الشيخ عباس بن رجب البغدادي (المتوفى سنة 1334هـ/1915م) بقوله: «مسجد عادلة خاتون من بنات وزراء بغداد السابقين، وهو جامع جمعة، وفيه مدرسة ومئذنة، وإمامان شافعي وحنفي»[3].

وأطنب السيد محمد سعيد الراوي في الحديث عن هذا الجامع، فقال: «هو الجامع الواقع على شارع النهر تجاه دار المحكمة الشرعية، يبعد عن جامع الصاغة[4] قدر ربع ميل .. وهو جامع مشتمل على مصلى واقع على يمين الداخل

---

(1) هذه هي ولايته الثانية في بغداد، وقد امتدت من 8 رجب 1149هـ/12 كانون الأول 1136م إلى 24 شوال 1160هـ/29 تشرين الأول 1747م. كتابنا: الأسر الحاكمة ص63.

(2) مساجد بغداد وآثارها ص 43.

(3) عباس بن جواد: نيل المراد في أحوال العراق وبغداد، فصل حققناه ضمن كتابنا: مساجد بغداد في كتابات الأجداد، بغداد 2005، ص27.

(4) هو جامع الخفافين المعروف في العصر العباسي بجامع الحظائر.

اليه، ومنارة عالية واقعة على الركن الغربي للمصلى، وعلى يمين باب المصلى رواق صغير لصلاة من فاتته صلاة الجماعة فيصلي هناك منفرداً. وعلى يسار الداخل الى الجامع درج يُصعد به الى المدرسة المطلة على الشارع. ويوجد بعض حُجَر في الجهة الشمالية والشرقية للجامع مُعدّة لسكنى الفقراء. أنشأت هذا الجامع صاحبة الخيرات والمبرّات عادلة خاتون بنت أحمد باشا المعروف بفاتح همدان.. وقد كانت هذه الخاتون المرحومة من الصلاح والتقوى على جانب عظيم، كثيرة الصدقات، مُحبَّة لأهل العلم والصلاح... ولا يزال الجامع هذا مشيد الأركان قائم البنيان، غير أنه أصبح منحطاً عن الطريق أكثر من نصف قامة، بسبب تعديل الطريق وتعبيده، وقد اعتنت به دائرة الاوقاف بعد وضعها يدها عليه وعلى أوقافه.، وقد كانا يُداران من قبل المتولين ابراهيم افندي المذكور [المميز] ثم ابنه عبد الوهاب[1] ثم ولده[2].. وفيه من الموظفين مدرس وإمام وخطيب ومؤذن وخادم، وهو مفروش بأحسن البُسط وأوقافه كثيرة[3].

وللجامع مئذنة عالية نوه بها كل من أرّخ له، وهي أنموذج للمآذن البغدادية الجميلة التي شاع بناؤها وتزيينها في العصر العثماني، فهي مزينة في قسميها العلوي بزخرفة مؤلفة من قطع الآجر المزجج المثبتة في صفوف قطع الآجر العادية تشكل لفظ الجلالة المكرر على طول ذلك القسم، والسفلي مزين بالآجر المزجج الملون بالطريقة نفسها يؤلف زخرفة هندسية مكررة على شكل صلبان معقوفة، ويعلو القسم السفلي شريطان مزخرفان بزخرفة هندسية أيضاً، بينما يستند حوض المئذنة على ثلاثة صفوف من دلايات آجرية بارزة مزينة بالآجر المزجج، ويزين جدار حوض المئذنة نجوم مثمنة مكررة من الآجر نفسه، خطت عليها بالخط الكوفي عبارات (يا الله) و(الله أكبر) و (يا محمد) ، كما يعلو القسم العلوي، تحت قبتها، شريط مؤلف من مستطيلات مرتبة طوليا فيها زخارف بقطع من الآجر المزجج.

---

(1) الصحيح أن عبد الوهاب هو ابن قدوري بك.

(2) هو عبد القادر بن عبد الوهاب.

(3) خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد ص102-111.

من غير المحدد تاريخ انشاء هذه المئذنة، فقد وجدنا على حوضها، في أحد الأشكال النجمية التي تزينها، عدداً يشير الى سنة 1229هـ/1814م فلعلها أنشئت في هذا التاريخ، او أن تعميراً أجري عليها في السنة المذكورة.

وكانت ثمة أبيات تؤرخ بناء الجامع. حُفرت على لوح من رخام ثبتت على بابه، وهي[1]:

ألا لله من بيتٍ مُعلى ... مُعدٌ للإقامة والصلاةَ
بناءٌ]سّسه تقوى ودين ... ينيف على الخورنق من جهات
فنعم الجامع الوضّاح يزهو ... كبدرٍ في الليالي الحالكات
تنَوَّر بالعبادة فهو يُزري ... بأنوار النجوم الزاهرات
بَنَته بمالها أمُ المعالي ... عقيلة قومها بنت السُراة
سليلة أحمد المرحوم رب الـ ... محامد والعُلى مولى الكُفاة
وزوجة مفخر الوزراء حتف العـ ... ـدا فلاق هامات الكُماة
(سليمان) الزمان الآصف القَرم ... فتى الفتيان ممدوح السِّمات
ألا يا دهرُ فافخر أنتَ حقاً ... بعادلة الرضا أم الصلات
كريمةُ قومها في كل مجد ... وغُرّة دهرها ذات الهبات
ومُطعمةُ اليتامى والبَرايا ... وكاسية الأرامل والعُراة
تُجدِّد كلَّ يومٍ فعلَ خيرٍ ... ومن حُسنى صنيع الصالحات
وتُعمَر مسجداً لله يبقى ... جزاء الخير في يوم النجاة
وهذا الجامعُ الأسنى بَنَته ... تروم به ثوابَ المُحْسنات
وقد جَعَلتْ ثَواباً كانَ منه ... لوالدها الرِّضا ذي المكرُمات
ليحيا ذكرها في الدهر دوماً ... وتُذكر في الحياة والممات

(1) نقلها الآلوسي والراوي وعباده بلفظ واحد.

حمـاها ربُنا مـن كلِّ سوءٍ بعـزِ دائمٍ طولَ الحيـاة
وضـاعَفَ أجـرَها في دار خُلدٍ ووفاها جـزاءَ القانتـات
ولمّـا أن تكمَّل قيـلَ: أرِّخ ألا يا تم حيّ عـلى الصلاة
(1163)

وثمة أبيات أخرى، على باب مصلاه الغربي، كتبت بالآجر المُزجَّج (القاشاني) هذا نصها:

ذا جامـعٌ مؤسـسٌ على تُقى الرب المتين
بنت الوزيـر أحمـد بَنته للدين المبيـن
عادلـةٌ كـريمـةٌ مخدومـةٌ للمؤمنين
دامت بعـز دائم في حفظ ربٍّ العالمين
تاريخه جاء الهَنـا فنعـم دار المتقيـن
(1168)

وقد حُرر تحت هذه الأبيات ما نصه: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (لا عزٌ إلاّ بطاعة الله تعالى). أما المنبر فقد كتب عليه، بالآجر المُزجَّج. قوله تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [36] رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ [37] لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [38]) وذلك سنة 1168.

وكانت ثمة أبيات بالتركية، بالمعنى نفسه، كتبت بخط الثلث المتقن، على رخامة في أعلى الباب الواقعة عكس القبلة. والكتابات تشير إلى تجديد جرى على الجامع سنة 1312هـ/1895م. إلا أن أكثر هذه الأبيات والكتابات أزيل في أثناء التعميرات اللاحقة.

أما محراب الجامع القديم فقد كان مكسواً بالآجر المزجج، زُيِّن داخله بزخارف نباتية على شكل زهور، يحيط بها شرائط من أوراق نباتية دقيقة ، وفي

أعلاه كتبت الآية بخط الثلث المُحقّق (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ) ويحيط به شريط كتابي عريض كتبت عليه بخط الثلث أيضاً الآية الكريمة (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَااسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)، وفي آخره التاريخ (1168).

وعُني بعض المُحسنين بالوقف على هذا الجامع، من ذلك أن نائلة خاتون بنت عبد الله زوجة علي بك محمد باشا زاده وقفت حصصاً في بساتين في قرية (الهُوَيْدِر) في نواحي الخالص[1] وغيرها على حسن بك بن صالح بك بن عبد الرحمن باشا وذريته ثم على مصالح جامع العادلية في وقفيتها المؤرخة في 21 ذي القعدة سنة 1226هـ/1811م.

وفي وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1817م شهادة لسيد حسن إمام العادلية، وإشارة إلى أن مما وقفه الواقف المذكور «المزرعة المعروفة بمزرعة درب هندي الواقع قرب المَنطقَة المحدودة من جهة بأرض وقف جامع العادلية»[2].

وفي سنة 1330هـ/1911م وسِّع الطريق المقابل لباب الجامع، وهو الذي كان يعرف بسوق راس القُرَيَّة[3]، ثم عُرف بشارع النهر فشارع المستنصر، فهدمت الباب ورفعت عنها الرخامة المحررة عليها الأبيات المتقدمة، التي مطلعها(ألا لله من بيتٍ مُعلّى..إلخ).

---

(1) قرية غناء تحفل ببساتين النخيل والبرتقال، تبعد عن مدينة بعقوبة مركز محافظة ديالى بنحو 3 كيلومترات.

(2) كتابنا : معالم بغداد في القرون المتأخرة ص132.

(3) تقع محلة راس القرية (بالتصغير) على دجلة، وتحيط بها محلات باب الاغا والدهانة والسبع ابكار، والقرية اسم لمحلة قديمة عرفت منذ العصر العباسي، وكانت تضم في ذلك العصر قصور الخلفاء والامراء ودور الدولة، وابرز قصورها الشاطئية قصر التاج الذي اصبح المقر الرسمي للخلافة العباسية، وعرف سوقها في العصر العثماني باسم سوق قرية باشي، وكثرت فيها الخانات التجارية، ومن معالمها أيضاً المحكمة الشرعية وجامع العادلية وخان العادلية المذكور مما أنشأته عادلة خاتون. كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد، بغداد 2004 ص67.

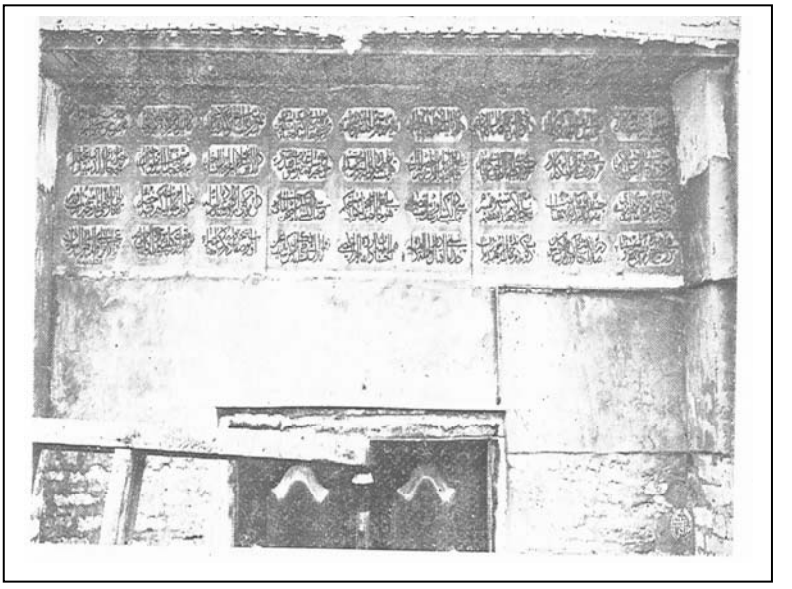

أبيات فوق باب جامع العادلية الكبير

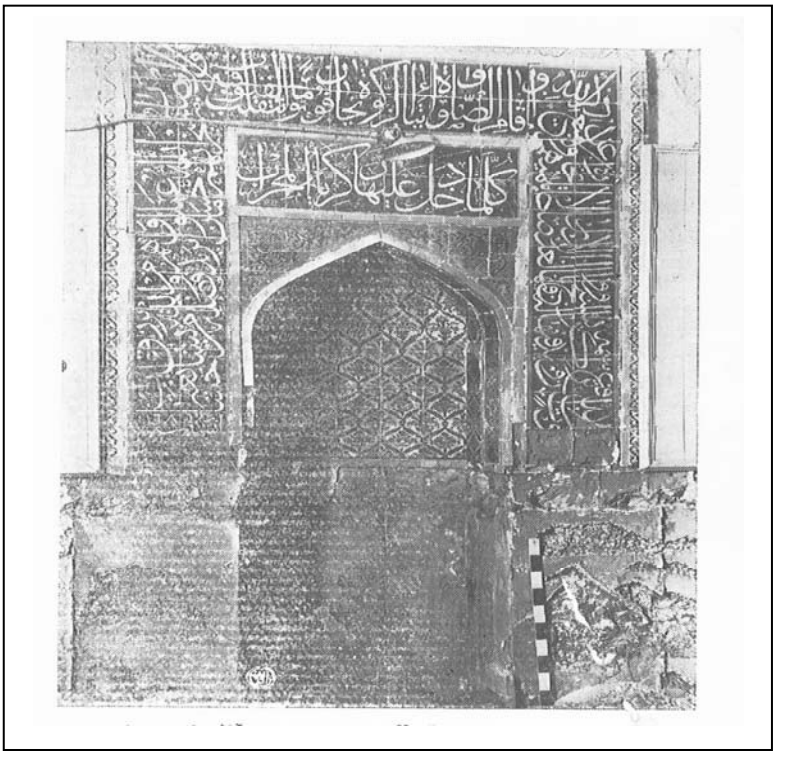

المحراب القديم لجامع العادلية الكبير

وكان ثمة سطر يعلو جدار الجامع وخطوط على محرابه ومنبره بخط الخطاط الشهير صبري بن مهدي[1].

وينوّه عباده بوقفية قديمة لعادلة خاتون تاريخها سنة 1160هـ/1747م وقفت فيها على هذا الجامع أوقافاً معلومة، وإنها شرطت التولية لنفسها في الحياة وبعدها لأولادها، وإذا انقرضوا فالغلة[2] توصل إلى فقراء المدينة المنورة بتعيين رجل أمين يوصلها، وتعيينه مَنوط الى القاضي، وحكم بهذه الوقفية للقاضي مومه زاده السيد أحمد حسيب في 18 ذي الحجة سنة 1160هـ (21 كانون الأول 1747م)[3]، وقد شهد فيها عدة أشخاص كرام، كأحمد أفندي المصرف، ورئيس البوابين قبُوجيلر كَتخُداسي حسين آغا، والكُمرُكجي علي أفندي، وأحمد آغا بن محمد أغا كَتخُدا، وعمدة الكرام صاحب السعادة محمد باشا، ورئيس الجواويش كَتخُداي جاوشان إبراهيم أغا.

والظاهر أن هذه الوقفية هي أولى وقفيات عادلة خاتون، وقد غيَّرتها في الوقفيتين التاليتين المؤرختين في سنة 1167هـ/1752 سنة 1171هـ/1757م، ولا شك أن أحد أسباب التغيير يكمن في كونها لم تُنجب خلال المدة التالية من يمكن أن يتولى أوقافها الكثيرة، وسنجدها في الوقفيتين المذكورتين تُعيِّن للتولية ابن عمتها محمد صالح بك بن عبد الرحمن باشا[4]، ومن بعده أولاده وأولاد أولاده[5]، وهي لم تفعل ذلك إلاّ بعد أن تجاوزت سن الإنجاب ويئست من أن يكون لها وريث.

وتشير وقفية سنة 1171هـ الى العقارات الكثيرة التي وقفتها على جامعيها ومدرستها. ومنها بستان خارج باب المعظم، وهي بستان الصرافية، وثلاثة خانات تجارية، ومقهيان في جانبي بغداد الشرقي والغربي، ودكاكين عديدة و أسكلة خشب، و ساقية، وبئر، ودولاب[6].

---

(1) الدروبي: البغداديون ص278.

(2) الصواب: فضلة الغلة.

(3) الموافق 11 كانون الأول 1747م.

(4) تسميه الوقفية: امير امراء شهرزور وكركوك. وكان قد تولى شهرزور (مركزها كركوك) من محرم سنة 1143هـ/1730م الاسرة الحاكمة ص240.

(5) وهم الذين سيعرفون، فيما بعد، بآل المُميَّز. انظر مشجراً باسمائهم في ملاحق الكتاب.

(6) نشرنا هذه الوقفية في ملاحق الكتاب.

وبلغ من عناية أهل الخير بالوقف على هذا الجامع، أن أحد مماليك أحمد باشا بن حسن باشا، ويدعى بشير أغا، وقف سنة 1175هـ/ 1761م. أي في حياة الواقفة نفسها، عقارات عديدة منها مزرعته المسماة بدولاب الفحامية، ومقاطعة خارج باب الإمام الأعظم على نهر دجلة على لوازم جامع العادلية الكبير، وقد اشترط «أن يقوم ثلاثة قراء بتلاوة القرآن العظيم الشأن في جامع عادلية الشريف المنشأ لخيرات المغفور له المشار إليه أحمد أغا طيب الله ثراه، الواقع قرب محكمة مدينة بغداد دار السلام، على أن يتولى اثنان منهم يومياً جزء من القرآن الشريف لكل واحد، ويتلو الثالث يومياً [سورة] ياسين الشريف المذكور بعد ضمة إلى واردات ذلك الجامع»[1] مما يدل على جسامة الأموال التي كانت مخصصة للانفاق على هذه المنشآت النافعة.

وقد أعاد متولو الوقف بناء الجامع كلياً سنة 1937م[2]. ولما يزل الجامع عامراً بالمصلين حتى يومنا هذا. وفي الجامع مقبرة تضم رفات تسعة من اعلام آل المميز المتولين السابقين للجامع، هم على الترتيب (1) محمد صالح بن إسماعيل بك (المتوفى سنة 1274هـ/1831م) و(2) الحاج عبد الوهاب بن عبد القادر بك (المتوفى في 1 شعبان 1331هـ/6 تموز 1913م) و(3) فاطمة خانم بنت محمد بك (المتوفاة في 30 شعبان 1323هـ/30 تشرين الأول 1905م)، وهي زوجة محمد بك بن صالح بك، و(4)عبد الجبار بك بن إبراهيم افندي المميز (المتوفى في 3 ربيع الأول سنة 1358هـ/23 نيسان 1939م)، و(5) منيفة بنت صالح بك بن ابراهيم أفندي (المتوفاة في 11 شوال 1355هـ/17 كانون الثاني 1935م) و(6) عبد القادر بك بن عبد الوهاب المميز (المتوفى في 14 صفر سنة 1374هـ/12تشرين الأول1954 م) .

وثمة قبور ليس عليها شواهد، ولكنها مثبتة الأسماء بحسب المستندات، وأصحابها هم: (7)عبد القادر بك بن محمد صالح بك (قدوري بك)، و(8) الحاجة مريم (مرّومة) بنت قدوري بك، و(9) الحاجة آمنة بنت محمد بك بن محمد صالح بك، أخت إبراهيم المميز[3]. وذكر عباس العزاوي أن ممن دفن في هذا الجامع

(1) انظر نص هذه الوقفية في ملاحق الكتاب.

(2) مجلة لغة العرب، السنة 1937، ص317.

(3) اعتمدنا في هذه الأسماء على قائمة بهم كان قد كتبها بخطه الحاج أمين المميز، وقد أعطاها إلى السيد زين النقشبندي فقدم لنا الأخير – مشكوراً- نسخة منها بناء على طلبنا.

العلامة يحيى المزوري العمادي (المتوفى سنة 1252هـ/1836م)[1]، وإذ ذكر ابراهيم فصيح الحيدري أن معاصره العلامة هداية الله الأربيلي حين توفي ببغداد دفن بجنب المزوري العمادي[2]، يكون هذا الجامع قد ضم في جنباته قبر هذا الأخير أيضاً. على أنه ثمة رواية أخرى تشير إلى أن العالمين المذكورين قد دفنا متجاورين في مقبرة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني[3].

ومن مشاهير خطباء هذا الجامع: السيد محمد صالح الأدهمي، والسيد صالح بن عبد الله آل جرجيس، والشيخ محمد صالح السهروردي[4]، وكلهم من علماء بغداد الكبار.

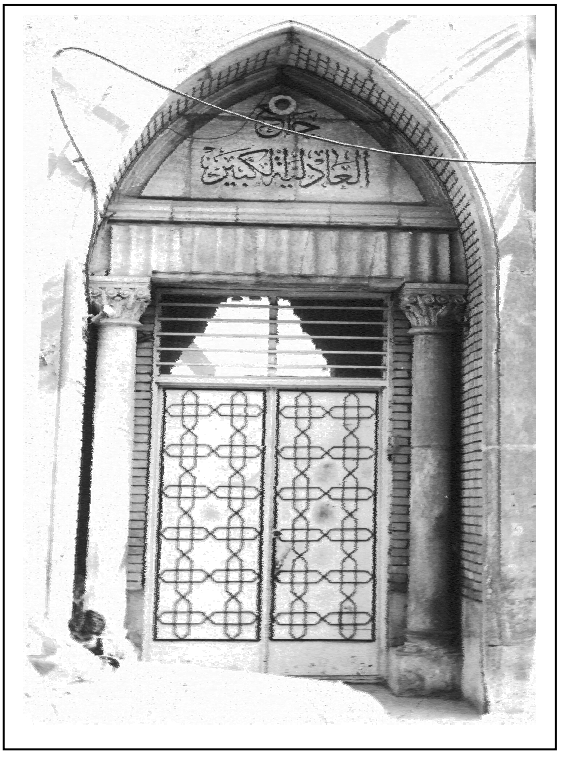

باب جامع العادلية الكبير

(1) العزاوي: خلفاء مولانا خالد، مجلة المجمع العلمي الكردي، ج2 (2) 1974، ص200.
(2) المجد التالد في مناقب مولانا خالد ص63-64 نقله زبير إسماعيل بلال: علماء ومدارس أربيل، الموصل 1984، ص67.
(3) عبد الكريم المدرس: علماؤنا في خدمة العلم والدين، بغداد 1983، ص622.
(4) محمد صالح السهروردي: لب الألباب ج2 ص443.

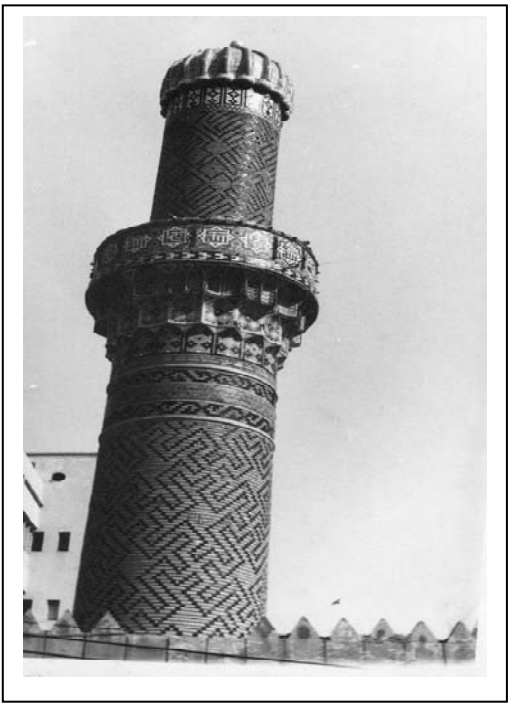

مئذنة جامع العادلية الكبير

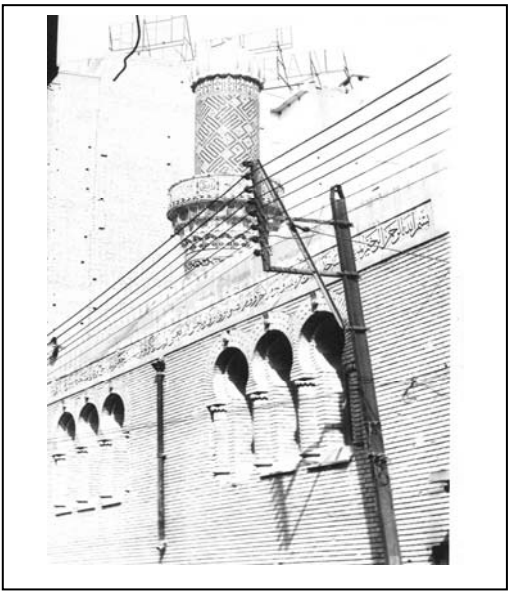

جامع العادلية الكبير وقد تصدع جراء القصف الجوي الأمريكي سنة 1991

3-المدرسة العادلية

ألحقت عادلة خاتون بجامعها المسمى جامع العادلية الكبير مدرسة لتدريس العلوم في المعقول والمنقول[1]، واختصت بالفقه الحنفي، وكانت هذه المدرسة تشغل عدداً من الغُرف في الطابق الأعلى من الجامع، وضمت اليها خزانة للكتب لتكون عوناً لطلبتها ومدرسيها على حد سواء، وحددت عدد طلبتها بخمسة عشر طالباً. وهو عدد كبير قياساً الى أعداد الطلبة في المدارس الأخرى. ورتبت الرواتب للمدرس، ولحافظ المكتبة فضلا عن المخصصات اليومية للطلبة. وبلغ من اهتمامها بأمر هذه المدرسة أنها كانت تشرف بنفسها على شؤونها، وتتعهدها بالعناية. وذكر الدروبي أنها بعد أن أكملت عمارة الجامعين «نظمت مدرستها التي شيدتها في جامع العادلية الكبير»[2]، وعبارة (نظمت) تدل على أنها وضعت نظاماً خاصا بالمدرسة، وهي مبادرة جديدة لم تكن معروفة في ذلك العصر بأية حال.

وقد ميّزت طلبتها بأن جعلت لهم شارات (باجات) خاصة يحملونها على صدورهم، كتبت عليها عبارة (طلبة المدرسة العادلية ببغداد) وهو ما انفردت به أيضاً بين واقفي المدارس كافة[3].

ولقد درَّس في هذه المدرسة عبر الحقب المتعاقبة صفوة من أشهر علماء بغداد، منهم السيد محمود شكري الآلوسي، والسيد صبغة الله الحيدري، والشيخ نجم الدين الواعظ[4]، والشيخ محمد أفندي الحاج حمد العسافي، وإبراهيم الراوي

---

(1) مصطلح يراد به علوم العقائد والحكمة والمنطق فضلا عن العلوم العربية والشرعية.

(2) فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 341ب.

(3) ابراهيم الدروبي: البغداديون اخبارهم ومجالسهم، بغداد 1958، ص322.

(4) كان السيد نجم الدين بن السيد عبد الله بن السيد أحمد المدرس في المدرسة العادلية قد طلب من نظارة الأوقاف الملكية زيادة راتبه إلى 150 غرشاً، نظراً لتفرغه الكامل للتدريس في المدرسة كل يوم حيث يقوم بتدريس «العلوم العقلية والنقلية» لا سيما وأن «واردات أوقاف الجامع الشريف المذكورة واسعة جداً ومساعدة وكافية إلى تسوية وظائف كثيرة غير الوظائف المذكورة»، وقد وافقت المحكمة على طلبه بجعل راتبه 250 غرشاً، وصدر الإعلام الشرعي بذلك، ولما استأنف المدعى عليه وهو المتولي على الوقف الدعوى، جاء قرار التمييز في 24 جمادى الآخرة 1330 معترضاً على حكم المحكمة، وعند عرض المدعى الأمر على

وغيرهم[1]. وكان المؤرخ عثمان بن سند البصري الوائلي قد ذكر في ترجمته لقاضي بغداد أحمد أفندي الحياتي أنه كان عالماً يلقي دروسه في مدرسة جامع العادلية مقابل دار عمله في المحكمة الشرعية ببغداد، فحضر ابن سند جانباً من دروسه[2].

أما المكتبة فقد تفرّقت كتبها منذ أمدٍ بعيد، ونقل المتولي ما تبقى منها الى داره، فعبثت بها الأرضة هناك حتى «أصبحت لا يُنتفع بها»[3]. وذكر محمد أفندي آل جميل[4] في تقرير كتبه عن كتب المساجد والمدارس أن المدرسة العادلية هي من المدارس التي كانت تضم «الكتب النفيسة» إلا أنه «لا يوجد منها ولا كتاب واحد»[5]. وكان السيد نعمان خير الدين الآلوسي (المتوفى سنة 1317هـ/1899م) قد وضع فهرساً للكتب المحفوظة في خزائن عدد من مساجد بغداد في أواخر القرن التاسع عشر فلم تكن من بينها خزانة كتب جامع العادلية المذكور[6]، ومع ذلك فقد وقفنا لدى أحد باعة المخطوطات ببغداد سنة 2000 على مخطوطة بعنوان (قواعد الإعراب) في النحو تأليف الشيخ سلطان بن ناصر الجبوري المتوفى سنة 1138هـ/1725م[7] كتب في صدرها أنها (وقف المدرسة العادلية في بغداد سنة 1168)(1754م)، وعلى صفحة العنوان تمليكات بأسماء

مجلس التدقيقات الشرعي أقر حكم المحكمة المذكورة. ابراهيم الدروبي: فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 272. تنظر الملاحق.

(1) المصدر نفسه والصفحة.

(2) أصفى الموارد من سلسال مولانا خالد، القاهرة 1313هـ، ص70، وكتابه : مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، ط:2، بتحقيقنا، بيروت 2010، ص20.

(3) الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها ص45.

(4) توفي سنة 1318هـ/1900م.

(5) جريدة الزوراء، بغداد، 12 شباط 1287هـ.

(6) فهرست مكاتب بغداد الموقوفة، قدمنا له ونشرناه ، منشورات مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد، 1985.

(7) شيخ علماء القراءات في عصره، ولد في الخابور نحو سنة 1072هـ/1661م، وتلقى العلم على عمر بن حسين الجبوري المتوفى سنة 1101هـ/1689م، ثم سافر إلى الحج فأخذ عن علماء الشام والقاهرة والحجاز والقدس، وأبرز من أخذ عنهم علم القراءات الشيخ محمد بن قاسم البقري، شيخ القراء في الجامع الأزهر، وحصل على اجازات كثيرة ، وعاد إلى بغداد حيث تولي التدريس في مدارسها الكبيرة، ورحل إلى الموصل حيث واصل دراساته على أيدي

1- عبد الله السويدي[1]

2- خليل بن سلطان الجبوري[2]

ولم يتيسر لنا اقتناء هذه النسخة في حينه، ويظهر انا أنها أستعيرت من خزانة المدرسة منذ أمد بعيد، فنجت مما أصاب سائر مخطوطات هذه الخزانة من التلف بسبب فتك الأرضة بها.

4- بيت القضاة في بغداد

أنشأت عادلة خاتون قرب المحكمة الشرعية ببغداد داراً خصصتها لسكنى القضاة الذين كانوا يقدمُون إلى بغداد، ولم يكن ثمة دار تختص بهم قبل ذلك، وقد ذهب بعض الكُتّاب إلىَ أنها أنشأت أيضاً مبنى المحكمة الشرعية نفسه[3]، بينما تشير النصوص الوقفية والتاريخية أن هذا المبنى يرقى الى عصر سابق على عادلة خاتون إذ اشير اليه في وقفية حسين افندي المؤرخة سنة 1089هـ/ 1686م وفي وقفيته المؤرخة في سنة 1100هـ/1688م[4]. وذكر الشيخ عبد الله السويدي أنه كان يتلقى العلم في أول شبيبته في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة (18م) في المدرسة الأحسائية (جامع التكية الخالدية فيما بعد) على شاطئ دجلة «على يسار محكمة القاضي»[5]، فما وقفته عادلة خاتون كان الدار التي خصصته لإقامة القضاة، وكلهم كان يقدم إلى بغداد من مدن أخرى، وليس مبنى المحكمة نفسه[6].

علمائها، له مؤلفات جمة في علوم القراءات والنحو والاعراب واصول الفقه . وضعنا في سيرته كتاباً مستقلا بعنوان (شيخ الإسلام سلطان بن ناصر الجبوري)، طبع في أربيل 2008.

(1) تقدم التعريف به، وكان شاهداً على وقف عادلة خاتون.

(2) توفي سنة 1179هـ .

(3) ذكر عبادة أنها «شرطت أن تكون محلا للقضاء ولسكن القضاة»، ولم نجد في وقفياتها ما يدل على هذا الشرط. العقد اللامع ص355 والآلوسي: مساجد بغداد وآثارها ص45.

(4) محمد سعيد الراوي: خير الزاد، تعليقنا في ص109.

(5) النفحة المسكية في الرحلة المكية، بتحقيقنا ص70.

(6) وكان آخر من سكن تلك الدار من القضاة هو المرحوم محمد سعيد الحديثي قاضي بغداد الأسبق، وسمي الحمام المجاور للمحكمة الشرعية لهذا السبب (حمام القاضي)، وهو من أوقاف ليلى خاتون بنت جواد آغا، وقد هُدم هذا الحمام وبُني في مكانه سوق التجار حالياً. المميز : بغداد كما عرفتها ص168والدروبي: البغداديون ص125.

وذكر السيد محمد سعيد الراوي أن الدار التي وقفتها على سكنى القضاة كان في الأصل دارها[1]، وهي اشارة مهمة يؤيدها الدروبي حين نوه بأن هذه الدار «كان قصرها الذي تسكنه بجنب المحكمة الشرعية»[2]. ومن الراجح أن تكون قد عمَّرت المحكمة تعميراً شاملاً، أو أعادت بناءها على هيئة جديدة. ولاحظ الراوي أن المحكمة ليست من أوقافها كما يقول بعض الناس ظناً، لأن وقفية الجامع تنطق بالمحكمة الشرعية، وتعتبرها حداً من حدود ما وقفته، وقد كانت المحكمة قبل وجود الجامع المذكور وأوقافه.

وقد بقي الحال كذلك حتى أواخر العصر العثماني وأوائل الحكم الوطني، غير أن دار سكنى القضاة تداعت ولم تعُد صالحة للسكن، ومع أن المحكمة الشرعية بقيت تزاول أعمالها في المبنى القديم، فان البناء نفسه أصبح، في ثلاثينيات القرن العشرين آيلاً للسقوط ومُعرَّضاً للخطر.

وفي سنة 1352هـ/1934م شيدت وزارة العدلية (العدل) بناءاً جديداً للمحكمة في موقع المبنى القديم، استناداً إلى التقادم، ولعدم استطاعة المتولين إبراز المستمسكات القديمة التي تبين عائديتها أسوة بأعيان الوقف الأخرى المستندة إلى الإعلامات والحجج الشرعية وسجلات الطابو.

وكان قد أقيم في وسط باحة المحكمة الشرعية القديمة قفص كبير[3]. ليكون مرقداً لرُفات الواقفة عادلة خاتون بعد نقله من موقعه الأول في مقبرة الإمام الأعظم. وقبل المباشرة بالهدم والبناء جرى الاتفاق بين المتولين السابقين من آل المميز، وبين وزارة العدلية، على تخصيص إحدى حُجرات المبنى الجديد لنقل الرُفات إليها، وقد تم ذلك سنة 1934، ونُقل الرُفات إلى حجرة خاصة تقع على الجهة اليسرى من مدخل المحكمة، ثم استخدمت هذه الحجرة مخزناً لسجلات المحكمة مدة من الزمن،

---

(1) خير الزاد ص109.

(2) فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 341ب. ونرجح أن تكون قد أنشأت قصرها هذا بعد وفاة زوجها سليمان باشا، إذ كان الولاة يسكنون حتى عهده في قصر مخصص لهم على شاطئ دجلة بينه وبين سراي الحكم.

(3) يعرف هذا الضرب من الاقفاص التي تقام على القبور باسم (كنكر) وكان من اشهر بناة الكناكر هو الأسطة علي والد المنولوجِسْت عزيز علي (1913– 1995)

وكان القبر يُرى في وسطها، وبعد مساع حثيثة بذلها الحاج أمين المميز، جرى إخراج السجلات من هذه الحجرة، وصيانتها، وقام – رحمه الله- بتعمير القبر وتثبيت شاهد تذكاري يُعرِّف بصاحبته، سنذكر نصّه في ملاحق هذا الكتاب[1].

مكان المحكمة الشرعية بعد نقضها وإزالة أنقاضها سنة 2012

(1) كنا قد سعينا منذ سبعينات القرن الماضي إلى نقل هذه السجلات، لاسيما ما يختص منها بالعصر العثماني، من الحجرة المذكورة التي لم تتوفر فيها أي من شروط الحفظ الآمن، إلى دار الكتب والوثائق، بوصفها المكان الأفضل لحفظها، والأولى بذلك قانوناً، ولكن الموافقة على ذلك النقل لم تكن تحصل بسبب ممانعة المحكمة نفسها مرة بعد مرة، بحجة حاجتها إليها في عملها اليومي، وحينما أفرغت المحكمة الحجرة من سجلاتها لتخصص لقبر عادلة خاتون على ما طالب به الحاج أمين المميز، لم تجد مكاناً في مبناها لحفظ تلك السجلات، ومن هنا سعينا لدى دار الكتب والوثائق إلى التقدم بطلب نقلها إلى إحدى قاعاتها وحفظها فيها، وكنا يومذاك عضواً في الهيئة الاستشارية للدار، فما كان من المحكمة إلا أن وافقت على الطلب المذكور، فنقلت وصارت في متناول الباحثين. وكنا قد أعددنا دراسة وفهرسة للسجلات المذكورة تحت عنوان (سجلات المحكمة الشرعية في بغداد وأهميتها في دراسة تاريخ العراق الإجتماعي والإقتصادي)، قدمناها إلى هيئة كتابة التاريخ في العراق سنة 1982، ثم نشرناها في مجلة المورد التراثية التي تصدر في بغداد، العدد2، السنة 12، 1983. وقد أخبرنا الدكتور بشير إسكندر مدير عام الدار، في لقاء به في شتاء 2012 أن تلفاً كبيراً أصاب هذه السجلات في أثناء حوادث الفوضى التي رافقت، وأعقبت، الاحتلال الأمريكي لبغداد سنة 2003، وأن عملية ترميم تجرى الآن لصيانة ما تبقى منها.

مكان مدخل المحكمة الشرعية بعد نقضها وتحويلها الى قيصرية لبيع الملابس (تصوير زين النقشبندي)

القفص الذي على ضريح عادلة خاتون وقد أحاطت به الملابس بعد هدم المحكمة الشرعية وتحولها إلى قيصرية (بعدسة السيد زين النقشبندي)

ولقد ظلت هذه المؤسسة النافعة تقوم بمهامها الإجتماعية لأهل بغداد منذ عهد الواقفة، وسُمِّيت محكمة الأحوال الشخصية في الرصافة. وفي سنة 2012 رأت الجهات (المسؤولة) أن تستفيد من موقعها المهم لأغراض تجارية بحتة، فكان أن أزالت مبناها بالكامل، وشيدت على أرضها سوقاً مقفلاً (قيصرية)، فزال بذلك مَعْلم مهم من معالم بغداد ارتبط بتاريخها نحو أربعة قرون أو يزيد. أما القبر فقد أزيل مبناه ورُفعت شواهده، ولما تداعى بعض مُحبِّي بغداد إلى انقاذه من الفناء، أعيد تحديده، لا تجديده، في مكان يبعد عن مكانه السابق، باتجاه الشارع العام، بعدة أمتار.

5- مشاريع مياه الشرب

- سقاية عادلة خاتون في جامعها الكبير

ومن مبرّات عادلة خاتون أنها أنشأت سقاية كبيرة لتزويد جامع العادلية الكبير والمنشآت المجاورة ، فضلا عن سائر الناس، بمياه الشرب. وكانت تلك السقاية تتألف من بئر عميقة تقع عند الشاطئ النهر، مقابل شريعة المحكمة، قد ثبت فيها دولاب (كَرْد) تحركه الدواب، فيرفع الماء من البئر إلى قناة عالية، مبنية على عقود من الآجر، أنشئت بجوار الزقاق النافذ من الشريعة المذكورة حتى تَقطَع، على قنطرة معقودة، درب راس القُريَّة فيجري الماء فيها حتى يصل إلى حوض خاص في الجامع، يستقي منه الناس، ودون أن تمَسَّه يد سَقّاء قط. وقد ورد في وقفيتها المؤرخة في سنة 1171هـ أن مما وقفته على جامعيها ومدرستها البئر والدولاب على دجلة والساقية القديمة الممتدة إلى الجامع الشريف المقابلة[1]، وأنها شرطت لـ«من يخرج الماء من البئر» راتباً يومياً قدره خمسة عشر آقجة، فضلا عن عشرين آقجة للسقّاء.

وقد أوقف العمل في الكَرد بعد تزويد الجامع والمنشآت الأخرى بالماء الصافي بواسطة الأنابيب المعدنية الحديثة والمضخات[2].

---

(1) ينظر نص الوقفية في ملاحق هذا الكتاب.

(2) كتابنا : تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، بغداد 2002 ص112.

- سقاية عادلة خاتون في جامعها الصغير

أنشأتها في مسجدها المعروف بالعادلية الصغير في محلة الدنكجية القديمة، على طريق الجسر القديم (جسر الشهداء حالياً) وخصّصت راتباً لمن يقوم برفع الماء من بئر الجامع قدره خمسة عشر آقجة، وعشرين آقجة للسَّقاء[1].

وكان على باب المسجد لوحة من الرخام عليها ستة أبيات دالية فيها إشارة إلى السقاية وتاريخها، منها:

فلما زهى بنيانُ باب دُخوله لنا وجَلى ماءٌ لضمآن من الصَدى

هناك اقتبسنا آيةَ الذكر أرِّخوا لربِّ السَما الهادي أُدخلوا البابَ سُجَّدا

(1161)

6- خانات تجارية في بغداد

استثمرت عادلة خاتون أموالها في إنشاء خانات تجارية في داخل مدينة بغداد وذلك بغرض الإنفاق على منشآتها الكثيرة التي خصصتها للنفع العام، من مساجد ومدارس وسقايات وغيرها، فضلا عن الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، فمن ذلك أنها أنشأت ثلاثة خانات في الأقل في بغداد، منها:

- خان العادلية.

وهو خان كبير قرب جامع العادلية الكبير في شارع راس القُرَيَّة (شارع النهر)[2]. أشارت إليه في وقفيتها المؤرخة في 1171هـ/1757م، بقولها «والخان المحيط من...جهاته بجامع العادلية وأرضيته الخارجية»، والعبارة القائلة أنه محيط من بعض جهاته بالجامع تشير إلى سعة هذا الخان، أما الأرض الخارجية فهي ساحة كانت تتخذ غالباً لوضع البضائع مما يصعب حفظه في داخله. وقد أشير إلى هذا الخان في وقفية خديجة بنت عبد الله، المؤرخة في 1182هـ/1768م، إذ جاء فيها أن مما وقفته هذه السيدة «جامع اللحسائي (الأحسائي) قرب خان

(1) عبادة: العقد اللامع ص276. وكتابنا: تاريخ مشاريع مياه الشرب ص111.

(2) عرف هذا الخان (بخان المنكنة) لوجود آلة كبس (مَنْكَنة) كان يُكبس فيها الصوف على هيئة بالات كبيرة، وقد شيد على أرضه مصرف الرافدين- فرع بغداد.

العادلية»[1]، وجامع الأحسائي هذا هو الذي عرف بجامع التكية الخالدية ويقع في نهاية الزقاق المتفرع من شارع النهر، والمُطل على دجلة. وكان الخان يختص غالباً بخزن البضائع التي ترد من البصرة..

- **خان في محلة الصفافير[2]**

أشير إليه في وقفيتها المذكورة، ولم يُعيَّن موقعه في هذه المحلة.

- **خان قرب الجسر**

أشير إليه في وقفيتها المذكورة حيث جاء فيها أن مما وقفته «الدكان في رأس الجسر والخان وأرضيته»، والمقصود بالجسر جسر بغداد الوحيد عهد ذاك، وكان في موقع جسر الشهداء الحالي، ولكن لم يتوضَّح من النص في أي جانبي بغداد كان، إلا أن الحاج أمين المميز، وكان يتولى وقف عادلة خاتون، أكد لنا أن المقصود به جزءاً من مبنى المدرسة المستنصرية القديم، في الجانب الشرقي، كان يشغله ربع الشافعية في العصر العباسي، وكان نيبور قد ذكر أن معظم مبنى هذه المدرسة أصبح يعرف باسم آت ميداني، وورد اسم خان المدرسة في وقفية سليمان باشا الكبير المؤرخة في 1206هـ/1791م على نحو يوحي بأنه يطلق على خانين اثنين، الأول هو الخان الذي أشار إليه نيبور، والآخر متصل به يدعى خان التوتون، وقال أنهما يقعان في رأس الجسر . ويؤيد ذلك ما ذهب إليه ابراهيم الدروبي في تعليقة له على خان التوتون من أنه هو المدرسة المستنصرية[3]، فالذي يظهر مما تقدم أن المدرسة المذكورة تحولت في القرن الثاني عشر (18م) لتصبح ما عرف باسم خان آت ميداني وخان التوتون، وكلاهما كان قسما مما عرف باسم خان المدرسة، وعرف خان التوتون في القرن التالي باسم خان المواصلة نظراً لسكنى الموصليين القادمين إلى بغداد فيه، ثم أصبح ملكاً لمديرية الآثار العامة بموجب

(1) كتابنا : معالم بغداد في القرون المتأخرة ص241.

(2) يتصل هذا السوق بسوق باب الاغا من جهة ودرب البزازين من جهة اخرى، وقد اختص بالصناعات النحاسية، وكان يعرف في العصر العباسي بدرب المسعودة، أو المسعود. كتابنا : الأصول التاريخية لمحلات بغداد، ص47.

(3) أخبار قضاة بغداد الورقة 192.

قرار صدر عن (مجلس قيادة الثورة) في حينه، وكانت اضطلعت بمهمة ترميم المدرسة وإحيائها لتكون متحفاً أثرياً[1].

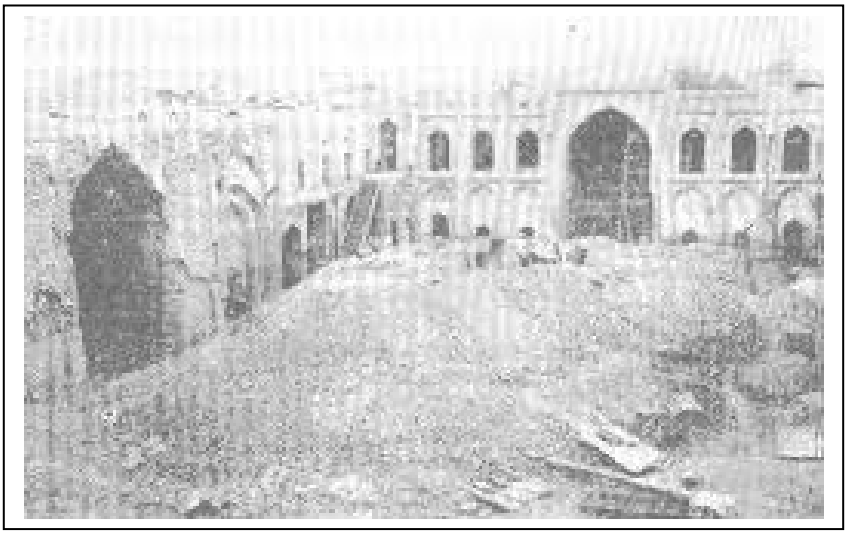

- **خان قره إيلان.** أي الأفعى الأسود، أشير إليه في وقفيتها المؤرخة في 1163هـ/1749م بوصفه يقع في الجانب الغربي.

- **سوق القيصرية**

كان هذا السوق يقع قريباً من سوق البزازين أحد أسواق الجانب الشرقي من بغداد[2]، في طريق ضيق عرف بطريق المصبغة، وقد وقفت فيه دكاكين أشير إليها في وقفيتها. وذكر أمين المميز أن هذه القيصرية كانت من إنشاء عادلة خاتون أيضاً، ووصفها بأنها شيدت على أرض مساحتها تقرب من مائتي متر مربع، ولها مدخل يؤدي إلى فِناء بمساحة 5×5 متر تقريباً. وفي المدخل سُلّمان يؤديان إلى الطابق العلوي، ويحيط بالفناء عدد من الدكاكين ومرافق، بينما يحيط الطارمة العليا عدد من الغُرَف و(مُسافرخانه). ويعلو الفناء سقف تتوسطه كُوَّة ذات مزاغل أشبه بالشبابيك مفتوحة من جهاتها الأربع، وذلك للتهوية ودخول أشعة الشمس[3].

(1) عبد الرحمن السويدي: تاريخ حوادث بغداد والبصرة، بتحقيقنا، بغداد ط2، تعليقة على ص119

(2) كتابنا: معالم بغداد ص219.

(3) بغداد كما عرفتها ص105.

7- مقاه في بغداد

شهد عهد المماليك في العراق ازدهاراً ملحوظاً في الحياة الاجتماعية، وصارت المقاهي محوراً لكثير من ملامح تلك الحياة، حيث تعقد الصفقات التجارية، وتدور الأحاديث الأدبية، ويؤدي الموسيقيون والمغنون ما يعرفون من أفانين الموسيقى والمقام، وبهذا زاد عدد المقاهي وأصبح الناس يتقاطرون عليها، فنمت أرباح أصحابها وصارت من المجالات التي تشجع على الاستثمار. وبهدف تنمية موارد الوقف، اشترت عادلة خاتون مواضع في بغداد ليجري تأجيرها بصفة مقاهٍ لهذا الغرض، منها:

- **مقهى المُميِّز**

كانت هذه المقهى في الأصل حديقة من أوقاف عادلة خاتون، وهي تجاور جدار المدرسة المستنصرية المطلة على شاطئ دجلة، وقد شيد متولي جامع العادلية على قسم منها مقهى سُمِّيت بقهوة المُميِّز، قال الدروبي«هذه القهوة من قهوات بغداد المشهورة بكثرة روادها لجمال موقعها، وكانت شبه مدرسة للموسيقى وفنون الغناء العراقي وأصول المقامات العراقية، يتردد عليها مشاهير المغنين وأعلام الموسيقى وعشاق المقام العراقي يتبارون بالأصوات والأنغام والضرب على الآلات الموسيقية منها السنَّطور. ومن مشاهير القرّاء في علم المقام أحمد الزيدان البياتي[1] وحسن الشكرجي، ولأجل ذا أصبحت هذه القهوة في العهد العثماني منتدى لرجالات الدولة وأعيان الأمة يقضون فيها أوقات الفراغ والراحة ليستمعوا إلى جميل الأصوات وحسن الأنغام وضربات القانون مع عليل النسيم الذي يهب من جانب دجلة.

وحُسن جمال هذه القهوة يبتدئ ظاهراً في ليالي الصيف المُقمرة حيث يضرب القمر بأشعته الفضية على أمواج دجلة فيزيدها روعة وجمالا، وهي الآن[2] باقية على وصفها القديم أما روادها فقد طواهم الدهر ومزقهم

---

(1) احمد بن حمادي بن زيدان ولد في بغداد محلة خان لاوند سنة 1248هـ/1832م وتوفى في 2 أيار1912م عن عمر ناهز الثمانين عاما وكان من اشهر قراء المقام، وقد رأس إحدى فرقتي الغناء في بغداد يومذاك المعروفة بـ (الجالغي)، والتي كانت تتخذ من مقهى المميز مقراً ثابتاً لها.

(2) وكان ذلك في سنة 1958م.

بتطاوله»[1]. وفي الأربعينات والخمسينات أصبحت هذه المقهى تعرف باسم مستأجرها (صاحب) وقد اتخذها طلبة المدارس والكليات مكاناً للاستعداد لأداء امتحاناتهم، لا سيما في فصل الصيف، وفي اوائل الستينات استملكتها أمانة العاصمة استملاكاً فورياً وأدخلتها ضمن (كورنيش المستنصرية) وذلك بمناسبة الفراغ من ترميم هذه المدرسة العباسية العريقة[2].

جسر بغداد القديم سنة 1910 وتظهر على يمينه في وسط الصورة، بلصق جامع الآصفية ذي المئذنتين، مقهى المميز

- **مقهى في الجانب الغربي**

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في سنة 1171هـ بما يفهم منه أنها كانت تقع في موضع نَزِه على شاطئ دجلة قرب الجسر من الجانب الغربي. ومن المحتمل أن تكون هذه المقهى هي التي اتخذها والي بغداد علي رضا باشا اللاز مقرا مؤقتا له في أثناء الاضطرابات التي حدثت في مدينته سنة 1834م[3]، وعُرفت المقهى في زمن متأخر باسم (القهوة المُعلكة) أي

(1) البغداديون ص391–392، وينظر عبد الكريم العلاف: بغداد القديمة، بغداد 1960، ص90 وهو يقول «وعلى الأغلب هو جناح من أجنحة مدرسة المستنصرية، وفي ليالي رمضان كان المغني العراقي أحمد الزيدان يغني فيه المقام العراقي، وهو يموج بالناس يستمعون إليه».

(2) زين أحمد النقشبندي: تاريخ مقاهي بغداد القديمة، بغداد 2013، ص137.

(3) فريزر، جيمس بيلي: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، ص189

المُعلقة، تمييزاً عن سابقتها، حيث كانت تقع في الطابق الثاني فوق صفٍ من الدكاكين، وقد استملكت لغرض انشاء مقتربات جسر المأمون (جسر الشهداء)[1].

- **مقهى في سوق القيصرية**

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1171هـ إذ جاء فيها «والمقهى في سوق القيصرية» (انظر هذه المادة)، وقد عُرفت هذه المقهى بمجالس الغناء والطرب، حيث كان يرتاده بعض كبار المؤدين للمقامات العراقية، وكان الوالي العثماني في مقدمة روادهِ[2].

- **مقهى آخر**

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في سنة 1163هـ ولم يتحدد موقعها. وأشار زين النقشبندي إلى مقهى غير قهوة المميز تقع على شاطئ دجلة بين شريعة الحمير وشريعة بيت النوَّاب، حيث توجد الخانات التجارية القديمة التي ما زالت أطلالها ماثلة للآن[3]، فلعلها هذه المقهى.

8- دار في محلة الصفارين

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1163هـ، وقد شرطت أن تخصص لسكنى الإمام في جامع العادلية الصغير. وأشير في وقفية الحاجة نَجَّو بنت الحاج عبد القادر المؤرخة في سنة 1295هـ/1878م أنها وقفت خاناً ومقهى محدودين «بدار وقف جامع العادلية»[4] فلعلها تلك الدار.

9- دار في محلة باب الآغا[5]

أشارت حجة الوقفية المؤرخة في 10 رمضان من سنة 1251هـ/1835م إلى أن

---

(1) بغداد كما عرفتها ص99.

(2) النقشبندي: تاريخ مقاهي ، ص132.

(3) المصدر نفسه ص161.

(4) معالم بغداد ص241.

(5) كانت ثمة محلتان باسم باب الآغا، الأولى باب الآغا العتيق، ومحلها اليوم في شارع الرشيد قرب العاقولية وسوق الأمانة، وأخرى باسم باب الآغا الجديد، وهي المعروفة اليوم بمحلة باب الآغا مطلقاً، وهي تتوسط محلات جديد حسن باشا وقنبر علي والدهانة، وما تقصده الوقفية هنا هو المحلة الأخيرة. كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد ص43.

من عقاراتها التي وقفتها على منشآتها الخيرية، عقار كان يقع في محلة باب الآغا، قريب من شاطئ نهر دجلة، تبلغ مساحته 175 مترا مربعاً، ويحمل التسلسل 1456، وقد أقامت وزارة المالية الدعوى على المتولي على الوقف دعوى بأن لا دليل على أن الأرض هي وقف لعادلة خاتون، فأصدرت محكمة بداءة بغداد حكمها برد هذه الدعوى، ثم أصدرت محكمة الاستئناف حكما في 11/18/ 1968 يقضي بتأييد حكم محكمة البداءة المذكور بإثبات كون العقار من أوقاف هذه السيدة، ثم صدر قرار تمييزي في 1969/8/31 يصادق على ذلك القرار.

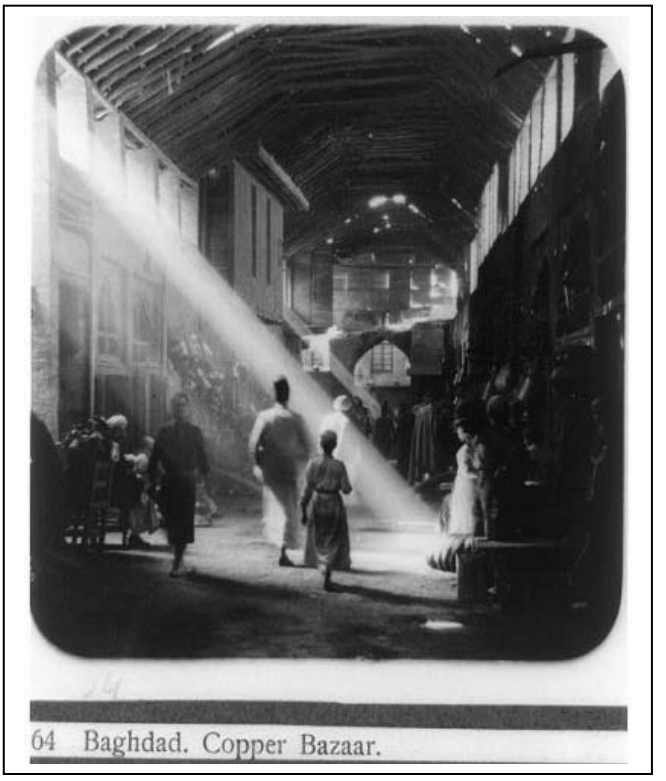

سوق الصفارين (أو الصفافير)

10- دكاكين مختلفة

ومما يتصل بمشاريع عادلة خاتون الاستثمارية، أنها اشترت أو أنشأت عدداً من الدكاكين في مواضع عدة من جانبي بغداد بُغية تأجيرها للتجار والباعة، على سبيل الاستثمار، تنمية لأموال الوقف، وقد أشارت في وقفيتها المؤرخة في سنة 1171هـ/1757م إلى:

- دكان في سوق الغزل.
- دكان في رأس الجسر، يظهر أنه كان مجاوراً للمقهى الذي وقفته في الجانب الغربي.
- سهم واحد من ستة أسهم من الدكان الواقع بقرب خان الأورتمة، وهو خان مرجان، في الجانب الشرقي من بغداد .
- دكانان في سوق السراي[1].
- جميع الدكاكين المقابلة لجامع العادلية. أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1171هـ
- ثلاثة دكاكين باتصال جامع العادلية الصغير. أشير إليها في وقفيتها المؤرخة 1163هـ
- أربعة دكاكين في داخل القيصرية. أشير إليها في وقفيتها المؤرخة 1163هـ
- دكان باتصال خان قره إيلان في الكرخ. أشير إليه في وقفيتها المؤرخة في 1163هـ

11 - أسكَلة خشب

هي على اصطلاح البغداديين الفناء المخصص لبيع ألواح الخشب، لأغراض البناء ونحوه، وكانت تقع في الجهة المقابلة لجامع العادلية الكبير. أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1171هـ.

12- بساتين

- **بستان الصرافية**

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1163هـ باسم (بستان أم الإيوان). وهي أرض واسعة كانت تمتد من نهر دجلة حتى درب المنازل المؤدي إلى خان بني سعد، وتضم ما عرف بـ(بزايز الصرّافية)، وقد جرى ضم معظم هذه الأراضي إلى مزرعة ملكية أنشئت هناك، فسجلت باسم (نظارة الخزينة الملكية) وهي تشغل المقاطعة رقم 1، بينما بقيت سائر الأرض وقفاً، وتوضح خارطة (الكادسترو) هذه

(1) ليس سوق السراي هذا هو المعروف اليوم ، وإنما هو سوق كان يعرف أيضاً بسوق القللغ، ويقع قرب جامع مرجان. ينظر: معالم بغداد ص217.

الأرض المتبقية أنها كانت محدودة بين الوزيرية – المزرعة الملكية المذكورة، وبين سدة القطار (مقتربات جسر الصرافية الحالي)، حيث المقاطعة رقم 38، وبين حدود قضاء الكاظمية، وبين مقاطعة شريعة نجيب باشا، القسم الوسطي، المرقمة 7، بمساحة قدرها 25 دونماً. وقد شقها شارع الإمام الأعظم المؤدي من باب المعظم إلى الأعظمية. ومما أنشئ فيها كلية الحقوق القديمة[1]، وميدان للرمي، ونادٍ لصيد الحمام، ومحطة بانزين[2] تقابل اليوم جامع عادلة خاتون الجديد. وكان ثمة قصر لمتولي الوقف يقع على شارع الإمام الأعظم، ونهر يخترقها يسمى نهر الصرافية، وقد زالت هذه المعالم منذ مدة. ومن غير المحدد مصدر هذه الأرض التي وقفتها عادلة خاتون، والذي نرجحه أنها ورثتها عن أبيها والي بغداد أحمد باشا، فإننا نعلم أنه كانت لهذا الوالي أرضا تقع خارج باب المعظم، نزل فيها زوجها سليمان باشا حينما قدم بغداد[3]. وبعد تصفية أوقاف عادلة خاتون سنة 1954جرى توزيع جانب من أرضها على عدد من المسؤولين آنذاك، بينما اشترى آخرون جانب آخر، فنشأ منها حي الوزيرية وما يجاوره من احياء حديثة[4].

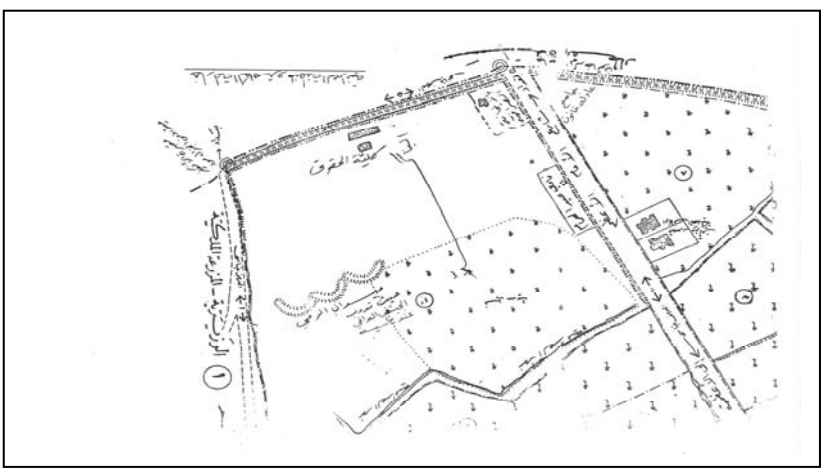

أرض الصرافية من أوقاف عادلة خاتون

(1) شغلت مبناها فيما بعد بعض أقسام كلية الفنون الجميلة.

(2) توقفت هذه المحطة منذ زمن بعيد، ورفعت آلاتها، وتحولت لتكون محلا تجارياً.

(3) تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ص16 نقلا عن تاريخ نشاطي.

(4) ينظر أمين المميز: بغداد كما عرفتها ص501.

- **بستان واقعة خارج باب الأعظم (المعظم)**

أشير إليها في وقفيتها المؤرخة في 1171هـ، ولم تتبين لنا علاقتها بأرض الصرّافية المتقدمة.

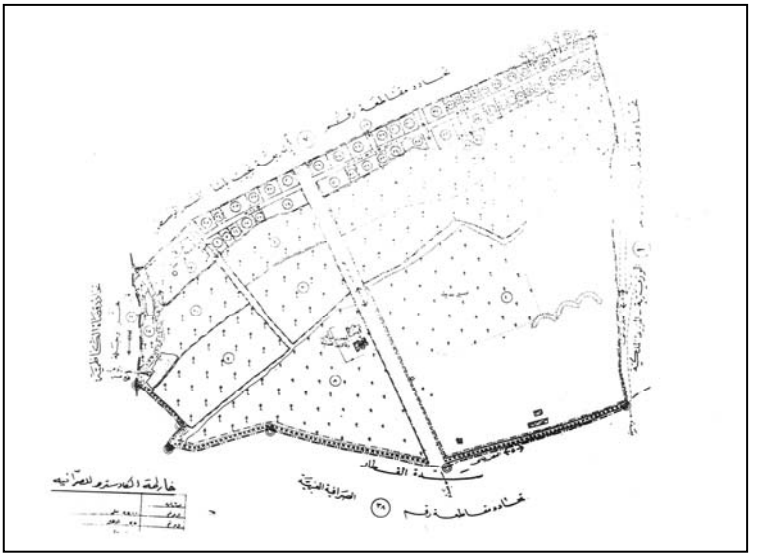

أرض الصرافية من أوقاف عادلة خاتون

- **أرض المتولية**

وهي التي عُرفت أيضاً ببستان المُتولِّيات، وتقع في منطقة العطيفية الثانية في الجانب الغربي من بغداد. وصفها الحاج أمين المميز بأنها كانت «زوراً تعوي فيه الذئاب والواويّة وليس فيها ما يستفاد منه سوى النخيل»، فاستبدلهما أحد متولي أوقافها ببستانين في بلدة مندلي هما بستان صاري أحمد(10 دونمات) وبستان باغياره (15 دونم)، و«كانا من أشهر وأعمر وأينع البساتين، بما تثمره من أنواع الحمضيات والفواكه الأخرى فضلا عن التمر الفاخر، وبلغ ضمان هذين البستانين في سنة 1918 مبلغا قدره 350 ليرة ذهبية، ولما تم قطع جريان نهر (كنكير) من الأراضي الإيرانية إلى مندلي سنة 1933م يَبسَت أرض هاتين البستانين تماماً، فقام متولو وقف عادلة خاتون بتصفيتهما بالمزايدة العلنية[1].

(1) المصدر نفسه ص506- 507.

العطيفية الثانية (ارض المتوليات)

- **أرض في منطقة (المَنطِقة) في غربي بغداد**

عرفت (المَنطقة) باسمها هذا نسبة إلى مشهد اشتهر بالاسم المذكور، وكان يعرف في العصر العباسي باسم مشهد العتيقة، وقد وقفت فيها عادلة خاتون أرضاً على أحد الجامعين اللذين أنشأتهما في بغداد، أشير إليها في وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1817م، حيث جاء فيها أن مما وقفه الواقف المذكور «المزرعة المعروفة بمزرعة درب هندي الواقع قرب المَنطقة، المحدودة من جهة بأرض وقف جامع العادلية الشريف»[1].ودرب الهندي هذا كان من حدود أرض الشالجية في الجانب الغربي من بغداد[2].

13- خانات في أنحاء مختلفة من العراق

أدى نشاط حركة التجارة في العراق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر،

(1) سجلت هذه الوقفية في سجلات الأوقاف في وزارة الأوقاف (ديوان الوقف السني حاليا)، ينظر كتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة ص132 ونقلها الدروبي نصها بالتركية في كتابه فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة192.

(2) معالم بغداد ص385، وكتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد ص123. وتشغل هذه الأرض اليوم محطة سكك غربي بغداد.

إلى إحياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص والمعتدين، وتوفير الخانات اللازمة لنزول التجار، وخزن بضائعهم، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق، وبخاصة في الأماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى.

أدركت عادلة خاتون أهمية إحياء طرق التجارة بإنشاء الخانات بين مراحل تلك الطرق، وحمايتها بالحراس والجنود، فكان أن أنشأت عددا من الخانات الحصينة على الطرق الرئيسة في العراق، وهي التي تحولت في خلال وقت قصير إلى قرى زاهرة بسب ما أحاط بها من دور وأسواق وما توفر فيها من خدمات، ولم يكن إنفاق عادلة خاتون يقتصر على تشييد تلك المنشآت المهمة فحسب، وإنما على توفير الطعام للنازلين فيها من القوافل، والعناية المستمرة بصيانتها، ودفع رواتب العاملين فيها، من الإداريين والطباخين والخدم والحراس وغيرهم، على مدى العام[1]، ولا شك في أن ذلك كله كان يشكل مبلغاً جسيماً، ويقتضي ادارة مالية متقنة، وقد جرى التقليد أن مؤسسي هذه المنشآت هم الذين كانوا يتكلفون بتوفير هذه المبالغ عن طريق وقف العقارات الكثيرة وتخصيص وارداتها لهذا الغرض بوصفها من أعمال الخير التي يُتقرَّب بها إلى الله تعالى. وفي هذا يذكر الرحالة الإسباني أدُولفو ريفادينيرا Adolfo Rivadeneyra الذي زار العراق سنة 1869م «أن جميع الخانات الموجودة بين بغداد والحلة، بل حتى ضريحي علي والحسين هي وقف، أو تركة خيرية، يتوجب على أسرة المُحسن المتوفى تولي الإنفاق عليها من المبالغ المرصدة مسبقاً لهذا الغرض.. ولابد من السفر في مثل

(1) كان الاهتمام بتأمين الطرق التجارية، يمثل في العصر العثماني، ضرورة سياسية فضلا عن ضرورتها الاقتصادية، ذلك أن تهديد تلك الطرق المستمر من قبل قطاع الطرق كان يمثل مسا بهيبة الدولة ويضر بمصالحها، فكان (تطبيع) الوضع على الأرض في مثل هذه الطرق المقفرة يعني استقرار النظام السياسي برمته، ولذا فقد اتجه كثير من الواقفين، من الولاة والأمراء والقادة، إلى انشاء الخانات الحصينة على طول تلك الطرق. وفي الغالب فإن تلك الخانات كانت تقترن ببناء وحدات خدمية متكاملة، تشمل : ثكنة لمبيت الجند، جامعاً، ومدرسة، وحماماً، ومنشآت أخرى. وهذا أدى إلى تحول تلك المحطات إلى نوى عمرانية أخذت بالتحول إلى حواضر سكنية مزدهرة، وقد تجلى ذلك بنشوء بلدة (قوش تبة) و(المحمودية) وغيرها من البلدات والقرى. ينظر محمد الأرناؤوط: الوقف في العالم الإسلامي، بيروت 2011، ص82-101.

هذه البلدان للعرفان بالجميل الذي يستحقه مؤسسو مثل هذه البيوت، حيث يمكن للمسافر المنهوك القوى الاحتماء من الشمس الحارقة، أو من الماء أو الريح، دون أن يدفع شيئاً، ودون أي واجبات أخرى سوى قراءة سورة الفاتحة لدى الدخول»[1].

ولا نستبعد أن تكون عادلة خاتون قد أنشأت خانات في مواضع أخرى على هذا الطريق. وكان الرحالة نيبور قد ذكر عند حديثه على أحد مسجدي عادلة خاتون وخانها في بغداد أنها شيدت كذلك «مبان مماثلة في أنحاء مختلفة من الولاية»[2]، وأكد هويد قد أكد أنه لا توجد مدينة أو ناحية أقل شأناً إلا وساعد كرمها على تشييد أجمل آثارها[3]. ومما يلفت النظر أن ما وصلنا من وقفيات عادلة خاتون يقتصر في اغلبه على ما وقفته في داخل مدينة بغداد، أما منشآتها الموقوفة خارجها فلا تتطرق إليها، مع أنها موجودة فعلاً وتؤدي خدماتها باستمرار، كما سَيَمرّ بنا، فهل ثمة وقفيات أخرى لم تصلنا، هذا ما يصعب التكهن به في الوقت الحاضر.

ومن تلك الخانات نذكر:

- **خان عادلة خاتون في قوش تبَّة**

تقع بلدة قوش تبّة على الطريق المؤدي من بغداد إلى أربيل، على مسافة لا تتجاوز 30 كم عن مركز الأخيرة، وقد نسبت البلدة إلى تل عال مجاور سمي بهذا الاسم، ويعني تل الطير[4]، وهي اليوم بلدة زاهرة متنامية.

وقد ذكر نيبور أن الفضل في تأسيس بلدة قوش تبه، يعود إلى هذه السيدة وإلى أبيها والي بغداد أحمد باشا، فقال في رحلته «وقرية قوش تبَّه تسمى خان عادلة أيضا، ومع أن جميع أراضي هذه المنطقة كثيرة الخصب إلاّ أنها كانت إلى قبل بضعة اعوام صحراء قاحلة، خالية من السكان، ما خلا بعض الأكراد الذين

(1) من سيلان إلى دمشق، دمشق 2009، ص76.

(2) رحلة نيبور ص61.

(3) رحلة من ساحل مالابار ص138.

(4) أفادت الدكتورة رافدة عبد الله عبد الصمد، التدريسية في قسم الآثار بآداب السليمانية بأن تسمية قوش تبة ليست تركية وإنما وردت في نصوص تل شمشارة من زمن الملك شمشي أدد الأول (1812–1781ق.م حيث وردت بصيغة كاش تبي KA-AS-TEPE.

يتجولون فيها في أوقات معلومة من السنة، وقد أمر أحمد باشا والي بغداد بحفر بئر وإقامة دار للراحة في هذا المكان وذلك لتسهيل الطريق على السُعاة وموظفي البريد. كما أمرت ابنته عادلة خاتون بتشييد خان لتأمين راحة المسافرين والمستطرقين».

وأصدر الباشا فرماناً[1] يقضي بمنح الحرية وحق زرع الأراضي المحيطة بهذا المكان لكل من يرغب السكنى فيها من الفلاحين، و«بهذه الطريقة تكونت قرية كبيرة في مدة وجيزة من الزمن»[2]. وكان مما جرى انشاؤه في قوش تبه قشلة عسكرية[3] لمبيت الجند الذين أنيطت بهم مهمة حماية الطرق التجارية بين الموصل وأربيل وكركوك وبغداد[4]، وأدى ذلك إلى ازدياد رغبة العشائر المرتحلة في المنطقة إلى الاستقرار فيها[5]، ومما شجعهم على ذلك تكليف السلطة العثمانية لرؤسائهم بتولي جباية الضرائب على المواشي وغيرها.

ومما يلفت النظر أن هذا الخان كان في طرف من المقاطعة التي منحت ملكيتها إلى علي باشا بن حسن باشا، وهو عم أبيها أحمد باشا، وتوارثها أبناؤه وأحفاده من بعد، وعرفت باسم (ملكية) التي يمكن أن قد تحرفت عن (مالكانه) وهو ضرب من الاقطاع الذي كان يضاف إلى اقطاعات الفرسان السباهية عهد ذاك، ويمكن أن تكون هذه الأرض هي التي أباح أحمد باشا سكناها للفلاحين، فنمت فيها من خلال سكناهم عدة قرى هي: 1-قورشاغلو 2- ميراوه 3- سوربش 4- دوكله 5-دووكردكان 6- بلنكه 7- باقوقه 8- تربة سبيان 9- ميرخوزار 10- قاضيخانه. ثم زاد عدد القرى حولها حتى بلغ نحو سبع ومائة قرية، هي:1- قوشتبة الكبيرة (قوشته به كوره) 2- قوشتبه كجكه 3- كرد مه لا 4- برينكه 5-

(1) الفرمان هو الأمر الصادر من السلطان حصراً، وكان الأولى ان يسميه (بيوراولدي) وهو مصطلح تركي بمعنى (تفضل بـ) ويختص باصداره الولاة.

(2) نيبور: رحلة ص89.

(3) ظلت بقايا هذه القشلة ماثلة إلى وقت قريب.

(4) عبد الله، هوشيار: ده زيي وناوجه دزه ييايه تي ده شتي هه ولير، بالكردية، مجلة (هه ولير)، الصادرة في أربيل، العدد 7، السنة 2000، ص129.

(5) إن أكثر هذه العشائر من قبيلة ده زيي الكردية المشهورة بقوة شكيمتها.

كوسكه 6- برايمه له ك 7- مير خوزار 8- بير داود 9- دووسه ره فتاح 10- دوسه ره جبار 11- سوريزه 12- يدي قزله ر 13- جديدة 14- ئاو دلوك 15- دوغان 16- هيله وه 17- كرد عازه بان 18- عه لياوع 19- ماستاوه 20- سياو 21- شيخ شه روان 22- منارة 23- كه سنه زان ده زيي 24- باقرته 25- سوربه ش كاكه الله 26- سوربه ش بووكه سه ر 27- بير عه رب 28- قولته به ره شيد 29- قولته به حويز 30- قولته به يابه وغير ذلك من القرى[1].

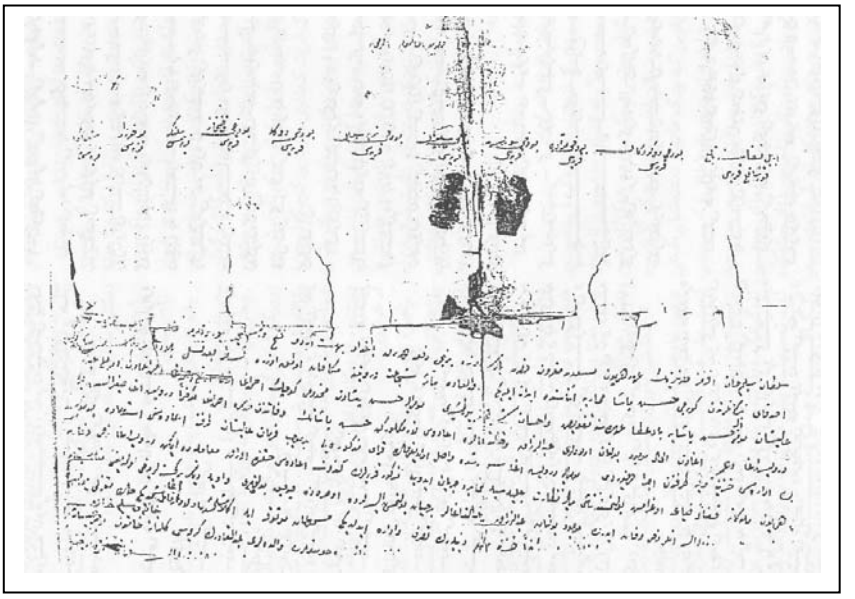

صورة اعلام شرعي يفيد بمنح السلطان سليم الثالث مقاطعة ملكية في قوش تبه إلى سلطان آغا ابن عم عادلة خاتون (نشرها هوشيار عبد الله)

ويُعد خان عادلة خاتون في قوش تبّة أنموذجاً واضحاً على مجموعة الخانات التي أنشأتها هذه السيدة المُحسنة في أنحاء مختلفة أخرى من العراق، فهو يشغل مساحة مستطيلة في جنوبي القرية، ويتألف مبناه من مدخل حصين، له نافذتان مستطيلتان في واجهته المطلة على الشارع، ويبلغ ثخن الجدار الخارجي نحو المتر، وإذا دَلفَ زائره إلى الداخل رأى حجرة مربعة مقببة، يُنفذ من يسارها عبر إيوان عال إلى فسحة مستطيلة مكشوفة، وإذا نفذ إلى اليمين رأى مخرجا لحجرة

(1) المصدر نفسه ص128.

مشابهة لكنه مغلق حالياً، أما إذا تقدم إلى الإمام فسينفذ من خلال عقد عال إلى رواق صغير على هيئة الحجرة السابقة يطل من واجهته على فناء واسع، وعن يمينه حجرة مقببة لها نافذتان، أما عن يساره فحجرة مقببة مشابهة لسابقتها، ولها نافذتان تطلان على الفناء، وثمَّ سلم عال يبدأ بالصعود من مكان في مدخل الحجرة اليمنى المشار إليه سابقاً ويدور فيَصِل بالصاعد إلى الطابق العلوي، بعد 12 درجة، ويتخذ هذا الطابق في تصميمه وارتفاعه ومواد بنائه هيئة الطابق المذكور، ففيه حجرة مقببة وتوجد عن كل من يمينها وشمالها حجرتان مشابهتان.

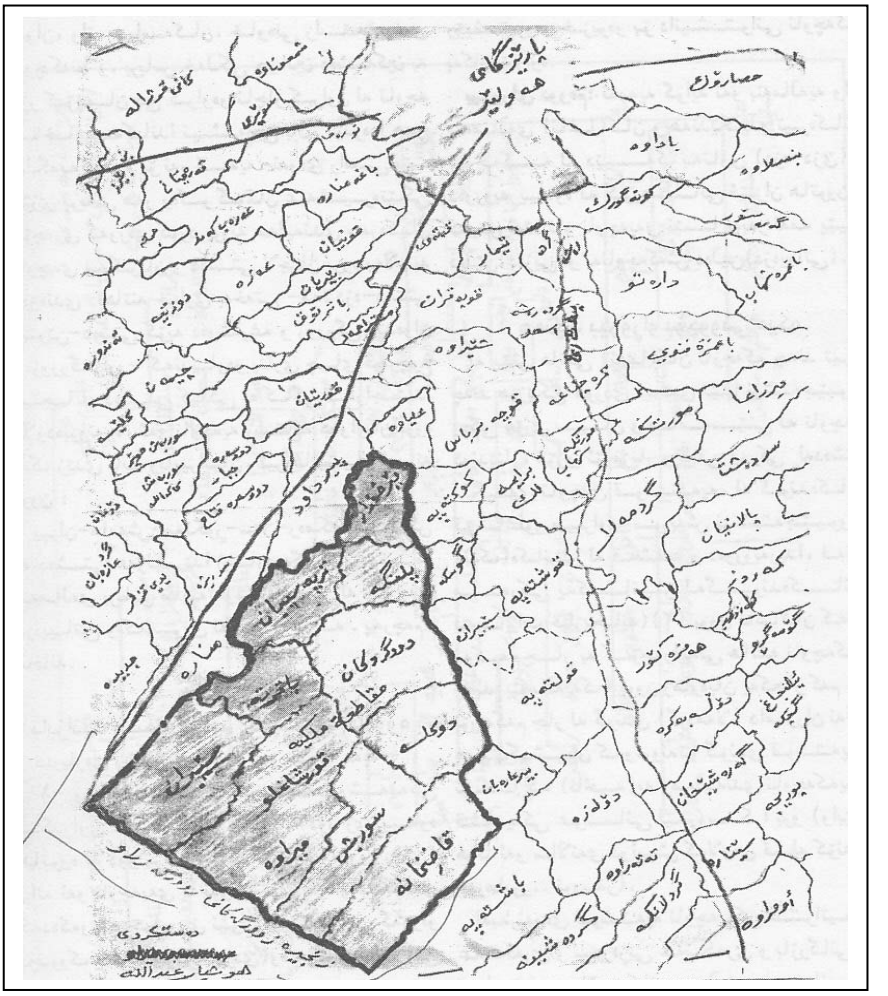

مقاطعة ملكية في قوش تبه التي منحت إلى سلطان آغا بن علي باشا، ابن عم عادلة خاتون (إعداد هوشيار عبد الله)

وثمة جناحان يتصلان بجناح المدخل هذا من يمين وشمال، فأما الذي من يمينه فيتألف من حجرتين مقببتين تتصل كل منهما بالأخرى، أعدت لتكون مطبخاً للنازلين في الخان، وثمة مرفق صحي في نهاية هذا الجناح. أما الذي عن الشمال فيتألف من إيوان كبير، يظهر أنه أعد لراحة النازلين. وقد أضيفت في وقت متأخر ثلاث حجرات إلى هذا الجناح، من طابوق نيء وفُصل الإيوان المذكور بجدار في وسطه. وقد أحيطت نوافذ الطابق العلوي بإفريز تساقط معظمه.

وفناء الخان يتخذ شكل مستطيل كبير، بُلط القسم القريب من جناح المدخل بالآجر الفَرْشي، وفي وَسَطه آثار بئر للماء، وثمّة آثار لسقيفة ثبتت على أعمدة من الخشب تستند على جناح المدخل، تظلل جانباً من الفناء، وصفٌ من حُجُرات وأواوين في الجهة المقابلة من الخان، نُقض ولم يبق منه إلا بقايا تتصل بسور الخان.

خان عادلة خاتون في قوش تبة- جناح المدخل (تصوير المؤلف)

بني الخان بقطع من الآجر المفخور، من أحجام مختلفة، وأكثره رديء الصنع، يبدو أنه أعد في (كُوره) أنشئت خصيصاً لهذا الغرض بناء الخان. وقد كسيت الجدران بطبقتين من الجص. وما زال جانب من باب الخان القديم موجوداً وهو من خشب الجوز.

ويظهر أن خان عادلة خاتون كان من المتانة بحيث لبث يصارع الدهر، عامراً آهلاً، أكثر من قرنين من الزمن، ثم اتخذ في عهد الدولة العراقية مخفراً للشرطة[1]،

(1) نيبور هامش الصفحة نفسها.

وأجريت فيه تحويرات محدودة ليوافق وظيفته الجديدة، وبعدها أهمل تماماً. وقد أحيط الخان من خارجه بصف من الدكاكين أخفته عن الأنظار، وهو اليوم متروك ويحتاج إلى صيانة وترميم لأهميته الآثارية والتاريخية[1].

خان عادلة خاتون في قوش تبة- جناح المدخل (تصوير المؤلف)

خان عادلة خاتون في قوش تبه- بقايا أواوين تطل على الفناء (تصوير المؤلف)

(1) على الرغم من فخامة بناء الخان، وضخامته، وأهمية وظيفته وموقعه، فإنه لم تعلن أثريته رسمياً، ولم يلتفت إليه القائمون على شؤون الآثار، مما دفعنا إلى تنبيه دائرة آثار أربيل إلى ضرورة العناية به فتولت – مشكورة- مسحه واعداد مخطط له. وقد أعددنا دراسة مفصلة عنه. عماد عبد السلام رؤوف، ونرمين علي أمين: خان عادلة خاتون في قوش تبة، دراسة تاريخية أثرية، معد للنشر.

ذكرنا أن الخان يبعد عن مركز أربيل، أي قلعتها الأثرية، نحو ثلاثين كيلو متراً، ومعنى هذا أن عادلة اختارت أن تنشئ خانها على بعد مرحلة كاملة من أربيل، والمرحلة ما كانت تقطعه القوافل في النهار الواحد، وتقدر بخمسة فراسخ، ويساوي الفرسخ 6 كم، ولنا هنا أن نتساءل: وماذا عن المراحل الأخرى في طريق يبلغ نحو 400 كم، فيها الكثير من المفاوز والقفار، إن منطق الأشياء يقضي أنها أنشأت خانات أخرى على طول هذا الطريق، لأنه لا يعقل أن تنشئ خاناً في قوش تبة، وتترك سائر الطريق خالياً من أي منزل يمكن أن تبيت فيه القوافل، أو تحتمي فيه من أي تهديد محتمل، وإلاّ لا يكون لخانها في قوش تبة أي جدوى عملية إذاً، وقد أسعدنا الحظ أن وقفنا على إشارة مهمة تدل على وجود خان في بلدة آلتون كوبرى[1]، على الزاب الأسفل، وهي بلدة تبعد عن خان قوش تبة بنحو 30 كيلو متراً أيضاً، أي مسافة مرحلة كاملة، ومجرد وجود هذا الخان يدل على احتمال وجود خانات أخرى بين كل مرحلة وأخرى، لا سيما في الفضاءات التي تقع في خارج المدن. ومن المؤسف أننا لا نمتلك معلومات كافية عن تلك المنشآت وما آل إليه مصيرها، نظراً لسكوت الرحّالين عن ذلك، وهنا علينا أن نتذكر أنه حتى خان قوش تبّه، على أهميته وضخامته، ما كنا لنسمع به لولا ما نوه به الرحالة نيبور من إشارة فريدة بشأنه.

جسر التون كوبري (صورة قديمة)

(1) ذكر الرحالة ليكلاما في أثناء مروره بالبلدة أنه كان ثمة خان في آلتون كوبري «كان سابقا كاروان سراي جميل واليوم مهدم»

Lycklama, voyage en Russie,au Caucase et en Perse,dans la Mesopotamie le Kurdistan, 1866-1867 et 1868, Amesterdam, P.88.

- **انشاء خان المحمودية**

ومن مَبرّات عادلة خاتون أنها أنشأت خان المحمودية الذي يصفه نيبور بأنه بين خان النص وخان آزاد، على طريق الحلة، وقد نشأت عند هذا الخان على الفور قرية نُسبت إلى الخان، فقيل لها المحمودية، ومر بها نيبور في 5 كانون الثاني سنة 1766م، الموافق 23 تموز سنة 1179هـ. فقال «قرية المحمودية التي بنتها قبل بضع سنوات فقط عادلة خاتون زوجة سليمان باشا»[1]. وقد نمت هذه القرية في القرن التالي حتى أصبحت بلدة كبيرة، واليوم هي مدينة مهمة تعد مركز قضاء باسمها تابع لمحافظة بغداد.

(1) رحلة نيبور ص148.

أما الخان فهو أنموذج آخر على الخانات التجارية التي أنشأتها عادلة خاتون، من حيث المتانة والسعة ووفرة الخدمات، وهو في تصميمه العام شبيه بالخان الذي أنشأته في قوش تبَّه، ويمكن وصفه عمارته بأنه يشغل أرضاً مستطيلة، له مدخل عال يتألف من طابقين، يبرز عن سور الخان الخارجي، ويوجد في الطابق الأرضي ايوان كبير من الخارج، مُدبّب الرأس، ينفذ منه، من خلال باب، إلى الداخل، ويعلو الباب من الداخل عقد مدبب، وهو مفتوح على فناء الخان.

أما الطابق العلوي فيوجد فيه إيوان مشابه للإيوان السفلي، ولكن لا يوجد على جانبيه جناحان كما في خان قوش تبة، وإنما يُزيِّن هذا الطابق من خارجه، صَف من الزينة الآجُريّة على هيئة أواوين صغيرة مُصمَتة، وثمة نافذتان على شكل عقدين مدببين عن يمين الباب الخارجية وشمالها. ويحيط بالفناء أواوين معقودة على شكل نصف دائري يبلغ عددها (34) ايواناً في جهتيه الشمالية والجنوبية يقابلها (40) ايواناً اخرى في الجهتين الشرقبة والغربية، وأمام كل إيوان معلف وحلقة حديدية مثبتة بعمود من الخشب تُستخدم لربط الحيوانات. ويتوسط الفناء أيضاً، مُصلّيان بشكل مستطيل يرتفع كل منهما نحو 1,5 م عن سطح الارض وقد فُرشت أرضيتهما بالطابوق الفرشي[1]، وتتقدم أواوين الخان سقيفة خشبية مغطاة بالحُصُر تستند على دعائم من الخشب، وكانت مُعدّة لسكنى من ينزلون فيه واستراحتهم. وفي وسط الخان كان ثمة بئر يستخدم لإرواء الناس والدواب. ويلاحظ أن الخان يخلو من موضع خاص بالدواب عن شمال المدخل، كما في قوش تبّه، وإنما تربط الدواب في ركن يلي المدخل من الداخل مباشرة. والبناء كله مشيد بالآجر المفخور، وبحجم واحد في أغلبه، مما يدل أنه أُعِد خصيصاً لبنائه، ولم يكن منقولاً من مبانٍ أخرى.

ما زال الخان شاخصاً، وقد أحاطت بجدرانه صفوف من الدكاكين، وهو يُعَد أكثر المواقع التراثية أهمية في مدينة المحمودية الآن.

14- تعمير جامع الكوفة

لم تقتصر عناية عادلة خاتون على إنشاء أو تعمير الخانات التجارية في الطرق الخارجية، وبناء الجوامع والمدارس ومشاريع الخدمات العامة في المدن فحسب، وإنما

(1) علي هادي المهداوي، موقع على الأنترنيت.

سَعَت إلى تعمير بعض المعالم الإسلامية الكبرى في العراق، ومن أهم تلك المعالم مسجد الكوفة الشهير، وكان هذا المسجد الكبير قد أصابه، بعد اندثار الكوفة نفسها في القرون المتأخرة، شيء كثير من الإهمال، فتشعثت أركانه، وتهدم جانب كبير من جدرانه الخارجية، وتعطلت وظائفه، حتى وصفه نيبور، وقد مَرّ به سنة 1179هـ/1765م، بـ«الجامع المتهدم»، وصار يؤدي- في أكثر تقدير- دَور محطة على طريق زوار مشهد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف، فعمدت هذه السيدة إلى صيانة المسجد، وترميم جدرانه، وكانت جدرانه من ناحية الشمال الغربي قد انهارت بالكلية، فأعادت هي تشييدها، وبحسب نيبور فإنها رممت بعض تلك الجدران وشيَّدت البعض الآخر، ثم أن همَّتها انصرفت إلى العناية ببعض المشاهد التاريخية والمقامات الدينية التي يضمها الجامع، وإحداث إضافات فيه، من ذلك أنها أمرت بإنشاء بناية صغيرة ذات قبة واحدة، قرب الجامع ضمت عدة مواضع مهمة، أولها حجرة صغيرة تقع في الموضع الذي قيل أن ابنة نوح كانت تخبز الخبز فيه، وثانيها الموضع الذي قيل أن جثمان الإمام علي بن أبي طالب (ع) غُسل فيه[1]، وبناية صغيرة أخرى «أهديت لبنات علي الثلاث ومن المحتمل أنهن مدفونات فيها»[2]. ومن المعلوم أن ضخامة هذه الجدران المفرط وارتفاعها كان يستلزم نفقات كبيرة وجُهداً بالغاً عهد ذاك[3].

---

(1) قال ابن بطوطة في رحلته واصفاً مسجد الكوفة «ومن الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام، ومن ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام، ومن آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب، والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به بيت يقال أيضاً أنه بيت نوح عليه السلام». وعلق السيد حسون البُراقي على هذا النص بقوله"يظهر من قوله: «من ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام أن بيت نوح ملاصق للزاوية الغربية، ويتصل بالباب الذي ذكرنا أنه مقام نوح عليه السلام الذي بجنب المنبر، وهو الباب الذي يدخل منه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أما الفضاء الذي ذكره المتصل بالجدار القبلي من المسجد الذي نجرت فيه السفينة فهو هذا الفضاء الموجود ما بين بيت أمير المؤمنين وبيت نوح الذي هو ملاصق للحائط القبلي». تاريخ الكوفة، بيروت 1424هـ، ص38-40.

(2) رحلة نيبور ص128

(3) في سنة 1290هـ/1873م نزل الكوفة بعض الناس وبنوا فيها بيوتاً من القصب على ضفة الفرات اليمنى، فكانت تلك البيوت نواة لحركة عمرانية نامية، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى عُدّت الكوفة ناحية تابعة لقضاء النجف. كتابنا: الأسر الحاكمة ص351.

وإذ أشاد نيبور بهذه الأعمال، فإنه ذكر أن من قامت بها عادلة خاتون زوجة سليمان باشا، وقال «التي توفيت منذ بضع سنوات»، وهذا غريب فعلاً، لأنه زيارته لهذا المسجد كانت في يوم 22 كانون الأول سنة 1765م ويوافق 9 رجب 1179هـ، بينما كانت وفاة عادلة في سنة 1182هـ/1768م، ويظهر أنه أراد أنها بَنَت ما بَنَت قبل بضع سنين، فهذا يتسق مع ما ذكره عن قرية المحمودية التي مرَّ بها بعد أقل من اسبوعين من هذا التاريخ[1]، وهكذا يكون إنشاؤها لهذه الأماكن في أواسط العقد السابع من ذلك القرن تقريباً.. ونعتقد أن عادلة خاتون تأسَّت في اهتمامها البالغ بالمشاهد الدينية بجَدها والي بغداد حسن باشا، فإنه سبق أن أبدى اهتماماً عظيماً بالمراقد المُشرَّفة، إذ جدد مرقد الإمام علي (ع)، وجدد الصندوق الموضوع على ضريحه الشريف، كما رمم أواوين صحني حضرة الإمام الحسين، والإمام موسى الكاظم (ع)، وأعاد تجديد الخانات لأراحة زوارها والمسافرين[2]، فكانت البنت تتعقب سيرة جدها بمثل هذه الأعمال الجليلة.

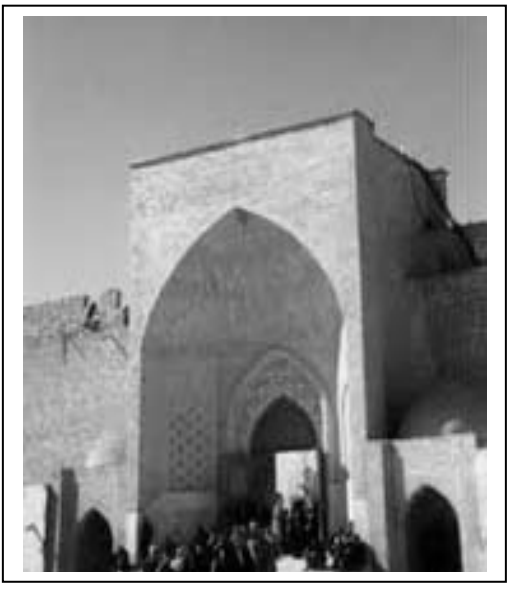

بوابة مسجد الكوفة

(1) رحلة نيبور ص1148.

(2) مرتضى نظمي زاده: كُلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد 1971، ص331.

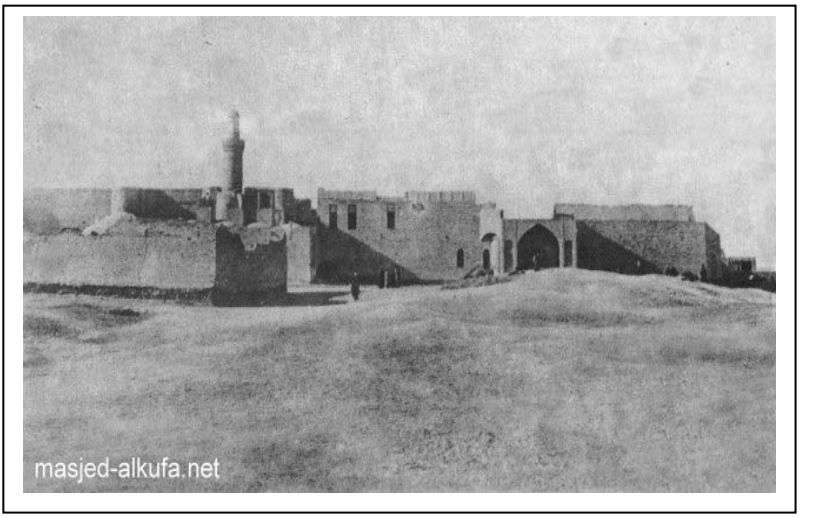

مسجد الكوفة (صورة قديمة)

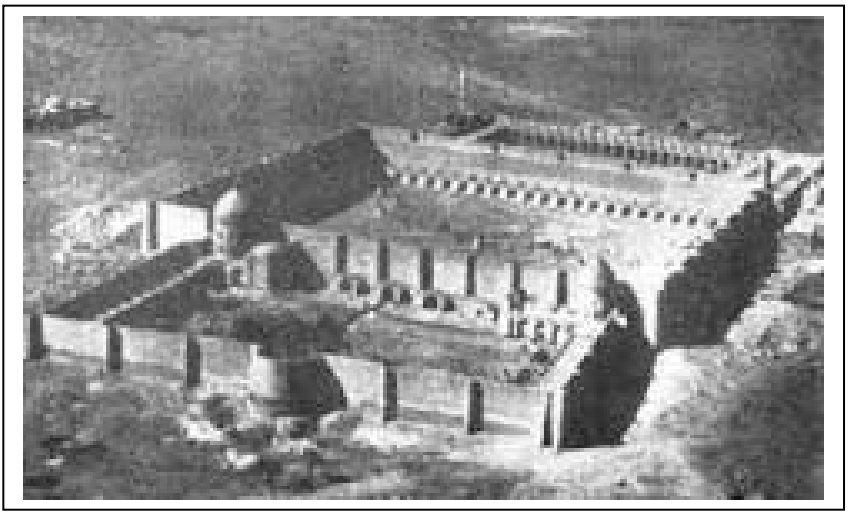

مسجد الكوفة من الجو (صورة قديمة)

جامع الريحانية في ماردين

تقع ماردين في شمال بلاد ما بين النهرين جنوبي الأناضول، في عقدة مواصلات مهمة تصل بين العراق وبلاد الشام من جهة، وبينهما وبلاد الأناضول من جهة أخرى، وهي اليوم في الأراضي التركية، قريبة من الحدود السورية، وهي

مدينة عريقة تعاقبت على حكمها دول عديدة، أبرزها الإمارة الأرتقية التي نشأت فيها في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، ثم ضمها العثمانيون إلى دولتهم اثر معركة جالديران سنة 920هـ/1514م، وأضيفت إلى ولاية بغداد في عهد سليمان باشا أبو ليلة، أول ولاة المماليك، سنة 1164هـ/1750م فتولى حكمها موظفون ينوبون عن والي بغداد يسمى أحدهم (متسلم) وعرف أحياناً باسم (ويوَدَه) وهو مصطلح بالمعنى نفسه، وكان أولهم عثمان آغا التوقاتلي، ثم عمر آغا، وصارت من ثم آخر توابع ولاية بغداد[1].

وإدراكاً من عادلة خاتون لأهمية المدينة التي ضمت إلى ولاية زوجها حديثاً، والتي تسيطر على طرق التجارة في شمالي بلادها، فقد رغبت في أن تشملها ببعض مبراتها الكبيرة، فأرسلت إلى متسلمها عمر آغا (1165-1169هـ/1751-1755م) أمراً ببناء مسجد فيها، مع المبلغ الكافي من المال لهذا الغرض، وذلك في سنة 1166هـ/1751م وتنفيذاً للأمر فقد جرى اختيار بقعة متروكة قرب سوق الرَّيحانية أحد أسواق المدينة، وشرع متسلم ماردين بتشييد الجامع المنشود، وفي أثناء حفر أسس الجامع فوجئ الناس بوجود بجثمان مدفون لرجل لم تصبه عوامل البلى، فاستدلوا على أنه شهيد وأن حفظ الأرض لجثمان دليل على كرامته، وقال مؤرخ ماردين عبدالسلام المفتي المارديني أنه في أيام عمر آغا المذكور «بُني جامع الرَّيحانية ومنارته بقرب السوق سنة 1166، وكان مكان الجامع مزبلة، ولما حفروا الأساس وجدوا به شهيداً لم يَبْل، والسبب في بنائه أن عادلة خانم ابنة المرحوم أحمد باشا أرسلت لعمر آغا دراهم ليبنيه لأجلها، إلا أن المذكور جمع المصروفات من العالم [أي الناس] وبناه»[2].

يقع جامع عادلة خاتون في وسط سوق الريحانية، أحد أسواق ماردين القديمة، وإليها نسب فسمي بجامع الريحانية. وهو مشيد بقطع الحجر، ذات لون

(1) يذكر عبد السلام المارديني أن سبب ضمها إلى بغداد هو «للإستعانة بذخائرها على سنجار، لكون سنجار أحد صناجق ماردين». تاريخ ماردين الورقة 142.

(2) تاريخ ماردين الورقة 145

داكن، كأكثر مباني المدينة، ولكن أدخلت فيه قطع من الحجر الأبيض للزينة، وله باب ينفذ إليه من السوق ثبتت في أعلاه لوحة كتب عليها باللغة التركية الحديثة أنه شيد سنة 1166هـ/ 1751م وقد بني مصلاه على نمط محكم وله دعامات ضخمة من الحجر. ومحرابه في غاية الجمال، حيث يأخذ القسم العلوي منه شكل شمس لها ثلاثة عشر شعاعاً، يحيط بها شريط ذو ثلاثة فصوص، وفي أعلى المحراب لوحة من الرخام نقشت عليها على نحو بارز خمسة أبيات ميمية تسجل تاريخ تأسيس الجامع إلا أن عوامل الطبيعة أثرت على هذه الكتابة فطمست معظم حروفها فلم يعد ممكنا قراءتها كاملة. وللمصلى باب معقود على هيئة نصف دائرة، وحوله شريط يتضمن زخرفة نباتية يعلوه عقد مفصص كتبت فيه الآية بالحجر (وإن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا)، وثمة كتابة بحط ديواني تتضمن البسملة وتاريخ 1419هـ/1998م وهذا هو تاريخ آخر التجديدات التي جرت على الجامع. وللجامع نوافذ ثبتت على شبابيك من الخشب، وقد زين أعلاها باطار مفصص، كما أن له مئذنة عالية لها حوض مسيج بسياج من قضبان الحديد المشغول.

وما زال جامع عادلة خاتون هذا قائماً ويعد من معالم ماردين الأثرية[1].

ماردين القديمة بقلعتها ومساجدها

(1) لابد من تقديم وافر الشكر إلى الزميل الدكتور سربست نبي على تفضله بتصوير هذا الجامع.

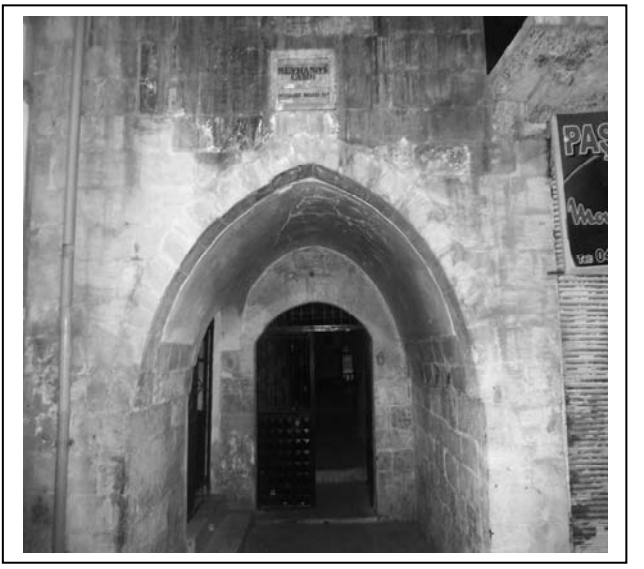

لوحة تعلو باب جامع الريحانية في ماردين كتب عليها بالتركية
أنه تأسس سنة 1166هـ/1751م

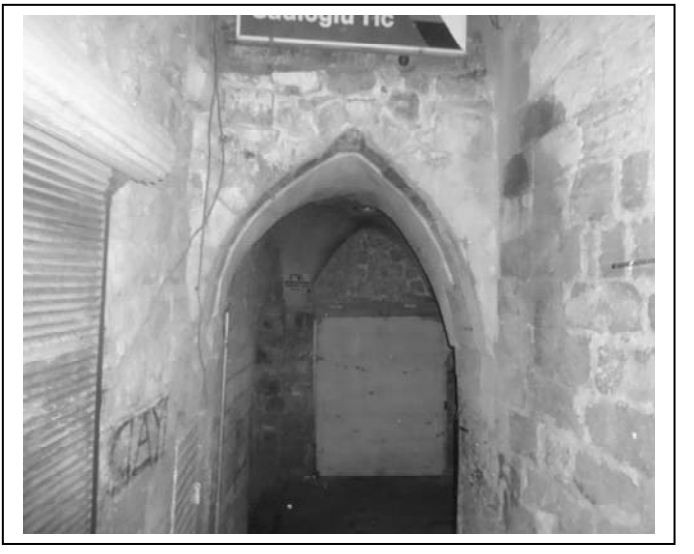

الزقاق المفضي إلى جامع عادلة خاتون في حي الريحانية

كتابة بالخط الديواني فوق احد العقود في فناء جامع الريحانية
تتضمن البسملة وتاريخ 1419هـ/1998م وهو تاريخ التجديد الأخير

متوضأ جامع الريحانية

باب بيت الصلاة تعلوه بخط الثلث
(وإن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً)

رواق في جامع الريحانية

محراب جامع الريحانية

خمسة أبيات بارزة على الحجر تؤرخ لتأسيس الجامع

خاتمة

لقد كان لعادلة خاتون دور مهم في تاريخ العراق الحديث يتجلى من خلال محاولاتها تكوين أول تكتل أو جمعية سياسية في العراق، لها اجتماعاتها وشاراتها الخاصة، تسعى من اجل إسناد النظام الذي لم يكن قد مضى على تأسيسه إلا سنوات قلائل. كما تجلى دورها أيضاً في إنفاذ الحملات العسكرية، من خلال حكم زوجها والي بغداد، لضرب حركات انفصالية كانت تنذر بعواقب وخيمة على أمن البلاد، وبرز دورها واضحاً في إنشاء الخدمات العامة لبيئتها ومجتمعها، وبضمنها مساجد، وخانات تجارية، ومرافق مدنية مختلفة في بغداد، كما عنيت بانشاء سلسلة من الخانات خارجها، تحول بعضها خلال وقت قصير إلى قرى فبلدات نامية، وقدمت المنح السخية للمحتاجين والفقراء، وإذ لم يكن مألوفاً أن تقوم سيدة بكل ذلك الدور، فقد انتشرت حولها إشاعات تتهمها بالقسوة والتحريض على تدبير المؤامرات، وكان هدف هذا الكتاب هو دراسة هذه الجوانب جميعاً، في محاولة لإعادة رسم شخصية تلك السيدة القوية، التي جمعت بين الحزم والرحمة، وبين أعمال السياسة، وأعمال البِر والخير.

ملاحق الكتاب

ملحق (1)

مسرد تاريخي

1116هـ/ 1704م	قدوم حسن باشا جد عادلة خاتون إلى بغداد
1132هـ/1717م	ولادة عادلة خاتون
1136هـ/1749م	تولي أحمد باشا ولاية بغداد والبصرة خلفا لوالده حسن باشا
1144هـ/1734م	أحمد باشا يفتح همذان
1156هـ/1743م	نادرشاه يحاصر بغداد والموصل والبصرة، ودفاع أحمد باشا عن بغداد
1145هـ/1732م	زواج عادلة خاتون بنت أحمد باشا من مملوكه سليمان باشا الأول
1160هـ/1747	عادلة خاتون تنشئ جامعها الصغير لروح والدتها كُلرخ خانم
1160هـ/1747م	زواج عائشة خاتون الأخت الصغرى لعادلة خاتون من أحمد آغا
1161هـ/1748م	عادلة خاتون تسافر إلى البصرة صحبة زوجها سليمان آغا (باشا)
1162هـ/ 1749م	سليمان آغا (باشا) يصبح والياً في بغداد والبصرة، وعودة عادلة خاتون إلى بغداد
1163هـ/ 1750م	عادلة خاتون تسجل أولى وقفياتها على جامعها الصغير
1166هـ/1753م	عادلة خاتون تنشئ جامع الريحانية في ماردين
1167هـ/ 1752م	عادلة خاتون تسجل ثاني وقفياتها على جامعيها الصغير والكبير
1168هـ/ 1754م	إكمال بناء جامع العادلية الكبير في بغداد
1170هـ/ 1756م	عادلة خاتون تسجل ثالث وقفياتها على جامعيها الصغير والكبير.
1171هـ/1757م	سليمان باشا والي بغداد ينصب عادلة خاتون متولية على وقف له.
1171هـ/ 1757م	إعدام سليم باشا البابانى واتهام عادلة خاتون بتدبير قتله.
1171هـ/ 1757م	عادلة خاتون تسجل رابع وقفياتها على جامعيها ومدرستها.
1175هـ/1761م	وفاة سليمان باشا زوج عادلة خاتون.
1175هـ/1761م	بشير آغا يسجل وقفية كبيرة على جامع العادلية الكبير.
1175هـ/1761م	تولي علي باشا زوج عائشة خاتون ولاية بغداد.
1175هـ/ 1761م	إنشاء عادلة خاتون قرية المحمودية وأسوار مسجد الكوفة
1177هـ/1763م	مقتل والي بغداد علي باشا واتهام عادلة خاتون بقتله.
1179هـ/1765م	زواج عائشة خاتون من والي بغداد عمر باشا.

1179هـ/1765م	الرحالة نيبور يزور بغداد ويتحدث عن نفوذ عادلة خاتون ومبراتها.
1182هـ/1768م	وفاة عادلة خاتون ودفنها في مقبرة الإمام أبي حنيفة.
1209هـ/1794م	الرحالة الفرنسي أوليفيه يتحدث في أثناء إقامته ببغداد عن عادلة خاتون.
1229هـ/1814هـ	إنشاء مئذنة في جامع العادلية الكبير.
1215هـ/1800م	الرحالة الإنكليزي هويد يتحدث في أثناء إقامته ببغداد عن عادلة خاتون.
1236هـ/ 1820م	صالح بك بن سليمان بك بن حسن بك، متولي أوقاف عادلة خاتون، يقف مزرعة واقعة في الصليخ على لوازم جامع العادلية.
1312هـ/1895م	تجديد جامع العادلية الكبير.
1318هـ/ 1900م	إبراهيم أفندي المميز يُعمِّر جامع العادلية الصغير.
1330هـ/1911م	نقض باب جامع العادلية الكبير بسبب توسِعَة شارع النهر.
1354هـ/1934م	نقل رفات عادلة خاتون إلى حجرة خاصة في مبنى المحكمة الشرعية في بغداد.
1355هـ/1937م	إعادة بناء جامع العادلية الكبير بعد نقضه.
1377هـ/1958	تصفية وقف عادلة خاتون.
1382هـ/1963م	بناء جامع عادلة خاتون الجديد في الصرافية ببغداد.
1411هـ/ 1991م	تصدع جامع العادلية الكبير جراء القصف الجوي على بغداد .

ملحق (2)
وقفية عادلة خاتون المؤرخة في 1163هـ/1749م

يشير عبد الحميد عبادة[1] إلى أن عادلة خاتون أوقفت على جامعها الصغير أوقافاً جمّة أدرجتها في وقفية لها مؤرخة في غرة جمادى الأولى سنة (1163هـ/1749م) وإذ لم نقف على نص هذه الوقفية، ننقل ما لخّصه منها عبادة عند كلامه على هذا الجامع. قال:

«وقد أوقفت عليه بوكالة أحمد أفندي بن حسين أغا البستان الواقعة على نهر دجلة المشهورة بأم الإيوان[2]، والأراضي المتخذة منها إلى ينكيجه[3]، وثلاثة دكاكين باتصال المسجد المذكور[4]، وقهوة[5]، وأربعة دكاكين في داخل القيصرية[6] وباتصالها من خارجها، ودار في محلة الصفارين شرطت سكنى الإمام فيها، واليوم هي خان للمتاجرة[7]. وفي الجانب الغربي، أي في جانب الكرخ: الخان المسمى خان قره ايلان، وباتصاله دكان، وثلاثين جزء قرآن، وقرآنين كبيرين، وقرآنين صغيرين،

---

(1) العقد اللامع ص274

(2) وهي التي عرفت فيما بعد ببستان الصرافية. ولا نعلم إيوان أي قصر هذا الذي نسب إليه البستان المذكور، وبما أنه لم يكن ثمة قصر هناك في القرون الأخيرة، لعدم السكنى في خارج سور بغداد، فلا يبق أن نفترض كونه من بقايا إحدى القصور العباسية القديمة، ويذكر الحاج أمين المميز أنه ما زال على شاطئ دجلة في الصرافية (سن) من آجر قديم يعتقد أنه أساس أحد تلك القصور، وكان الدكتور مصطفى جواد رحمه اللّٰه يسترجح كونه أساس قصر الأمير سبكتكين، أو الدار الستيني، أو قصر الزاهر. أنظر بغداد كما عرفتها ص476.

(3) ان ينكجه بعيدة عن بستان الصرافية بعداً شاسعاً، وهي المعروفة اليوم بجديدة الشط، وتقع على دجلة وتعد من أعمال الخالص.

(4) أدمجت هذه الدكاكين، في عهد تولية إبراهيم بك المميز، لتكون دكاناً واحداً، وقد استأجره مركب الأسنان المرحوم الأسطة ناصر.

(5) وهي التي عرفت بالقهوة المعلقة وتقع في جانب الكرخ.

(6) استملكت هذه الدكاكين لغرض توسعه شارع أسامة بن زيد (السمَوءل سابقاً).

(7) وهو الخان الذي عرف بخان التتن، ويقع بجوار جامع العادلية الصغير، في (دربونة الصفافير)، وقد استملك لغرض توسعة شارع المأمون.

وربعة شريفة، ودلائل الخيرات نسختين، وتفسير القرآن، تركي، وجواهر القرآن[1]، وإبراهيم حلبي صغير[2] وتفسير معالم التنزيل، ودرر المختار[3]، ومصابيح شريف[4]، وسبع يانات[5]، وسجادتين، وشمعدان برنج، وقدر كبير من النحاس، وخمسة دولكات من نحاس[6]. وأن يعطي من الغلة إلى المتولي عبد الكريم أفندي ثلاثين أقجة يومياً[7]، والإمام ثلاثين أيضاً، وعشرة إلى محافظ المكتبة، وعشرة آقجات للمؤذنين، وخمسة عشر آقجة الى كليدار الجامع والسَبيلجي[8]، وخمسة عشر آقجة الى من يُخرج الماء من البئر[9]، ومُوقد القناديل، وعشرين آقجة للسقّاء، وخمسة عشر آقجة الى المعمار[10]، وسبعة آقجات للفراش، وسبعة للكنّاس، وثمانين آقجة للوازم الجامع، والفضلة يعمر بها الجامع، ويحفظ الباقي عند المتولي. وشرطت التولية إلى أولاد عمتها فاطمة خانم بنت حسن باشا وابنها محمد صالح بك وأولاده أناثاً وذكوراً، وذلك بموجب الوقفية المؤرخة غرة جمادي الاولى سنة 1162هـ/19 نيسان 1749.

(1) وهو للإمام أبي حامد الغزالي (ت505هـ).
(2) وهو مختصر غنية المتملي في شرح منية المصلي لإبراهيم ابن محمد الحلبي (ت 956ه).
(3) هو الدر المختار شرح تنوير الابصار لمحمد بن علي العباسي الحصكفي (ت1088هـ).
(4) يريد: مصابيح السنة للامام حسين بن مسعود البغوي (ت 516هـ).
(5) اليانة: ضرب من السجاد.
(6) ظلت هذه الدولكات مربوطة بسلاسل الى حوض كبير منقور من الرخام وقد أزيل هذا الحوض بإزالة الجامع نفسه.
(7) لم نقف على اسم هذا المتولي في قائمة أسماء المتولين.
(8) هو المُوكل بخدمة (السبيل خانة) أي السقاية الكائنة في الجامع.
(9) كانت هذه البئر موجودة قرب الحوض الذي مرت الأشارة إليه.
(10) وهو ما يقابل في زماننا هذا (المهندس المقيم).

ملحق (3)

وقفية عادلة خاتون المؤرخة في 1167هـ/1752م[1]

حضرت عادلة خاتون بنت أحمد باشا والي بغداد بن حسن باشا والي بغداد ووقفت الجامع الكبير المسمى جامع العادلية الكبير الواقع في محلة رأس القرية مقابل المحكمة الشرعية [المسمى اليوم شارع المستنصر][2] ووقفت أيضاً جامع العادلية الصغير الواقع في رأس الجسر القديم، ووقفت على مصالح الجامعين ولوازمهما، وعلى المدرسة التي في الجامع الكبير، والفضلة تعود لعمتها فاطمة خاتون بنت حسن باشا، ومن بعدها لأولادها وأولاد أولادها ذكوراً وإناثاً بالتساوي، وذلك بحضور:

فخر المدرسين مولانا محمد أفندي المفتي

رئيس العلماء علي أفندي وكيل مفتي بغداد

محمود أفندي مفتي الشافعية

السيد محمود أفندي نقيب الأشراف

عبد القادر بن السيد عبد الله النائب سابقاً

الملا خليل بن الشيخ سلمان

محمد صالح بن الشيخ عبد الرزاق

شيخي زاده محمد أفندي المدرس

عبد الرزاق بن عبد الحنان أمين الفتوى

عبد الرحمن بن الشيخ عبد الله السويدي

---

(1) لخص إبراهيم بن عبد الغني الدروبي هذه الوقفية في كتابه : تاريخ قضاة بغداد، الورقة 180، ولم نقف على نص هذه الوقفية في سجلات وزارة الأوقاف، فاضطررنا إلى نقل هذا الملخص بحروفه. وواضح أنها ليست الوقفية السابقة، بدليل بعض الاختلاف في أسماء الشهود، وفي تاريخ الوقفية.

(2) هذه الزيادة للدروبي.

عبد الرحمن بن عبد الكريم

ياسين بن الملا أحمد

محمد بن علي

عبد الصمد بن الملا مصطفى

حسن أفندي بن حسين أفندي النائب سابقاً

علي جلبي جاووش

السيد أحمد أفندي خطيب الأعظمية[1]

أحمد أفندي مفتى الشافعية

ملا عبد الكريم رحبي زاده

سليمان بك بن محمد باشا دفتردار بغداد

الشيخ محمد سعيد بن عبد الله السويدي

الملا محمد خطيب جامع الشيخ سراج الدين[2]

الملا عبد الرزاق إمام جامع العاقولي[3]

الملا إسماعيل إمام [جامع] جديد حسن باشا[4]

---

(1) يقصد الخطيب في جامع الإمام أبي حنيفة في الأعظمية.

(2) جامع في المحلة المنسوبة إليه من محلات الجانب الشرقي من بغداد، نسب إلى دفينه الشيخ سراج الدين محمد بن عبد الله الواسطي الرفاعي (المتوفى سنة 885هـ/1480م) جدده والي بغداد حسن باشا، جد عادلة خاتون، ومد إليه قناة معلقة على عقود من دجلة لتزود سقايته بالماء، وما زال الجامع قائماً. ينظر عبد الحميد عبادة: العقد اللامع ص408- 409، ومحمد سعيد الراوي: خير الزاد ص192- 193.

(3) جامع كان أصله داراً للشيخ عبد الله بن محمد، جمال الدين العراقي، المعروف بابن العاقولي، مدرس المستنصرية (المتوفى سنة 728هـ)، وقفها على تلامذته، وتحولت إلى جامع نسب إليه، ويقع في محلة العاقولية من محلات الجانب الشرقي من بغداد، وما زال عامراً. العقد اللامع ص239-231 وخير الزاد ص236-238.

(4) كان أصله مسجداً أنشأه الخليفة الناصر لدين الله العباسي، أعاد انشاءه ووسعه والي بغداد حسن باشا، جد عادلة خاتون سنة 1133هـ/1720م، ويقع في مقابل مبنى القشلة ببغداد. ينظر العقد اللامع260 وخير الزاد ص67-71.

عبد الرحمن جلبي بن إبراهيم نظمي زاده

محمد صالح تذكره

مرتضى أفندي تذكره

محمود أفندي المحاسبي

الحاج زكريا آغا بن يكن مصطفى آغا

عثمان آغا بن يوسف آغا

درويش أفندي كاتب المحكمة[1]

عبد الله أفندي خليفة روزنامه جي

عبد الرحيم أفندي

أحمد جلبي بن إبراهيم

محمد جلبي بن حسن جلبي

عثمان آغا بن يوسف آغا

وطلبت الواقفة عادلة خاتون تسجيل الوقف بشرائطه وضوابطه. وبعد إجراء المرافعة الشرعية بينها وبين متولي التسجيل الشيخ عبد الله السويدي[2] مدرس [المدرسة] القادرية حكم القاضي بصحة الوقف ولزومه، وسَجَّله في اليوم الحادي والعشرين من شوال المكرم سنة 1167[3]. وكتب القاضي الموما إليه بخط يده في صدر كتاب الوقف ما نصه: حكمتُ بصحة هذا الوقف ولزومه، بخصوصه وعمومه، عالماً بالخلاف الجاري بين الأئمة الأسلاف حُكماً صحيحاً شرعياً وأنا الفقير إليه عزّ شأنه السيد عبد الباقي السيد أحمد قاضي بغداد المحروسة. انتهى.

---

(1) هي المحكمة الشرعية في بغداد، وقد أنشأت فيها عادلة خاتون بيتاً للقضاة، على ما أوضحناه في هذا الكتاب.

(2) تقدم التعريف به.

(3) ورد هذا التاريخ في الكتاب بصورة 1267هـ/ 1850م، وواضح أنه مجرد تصحيف لا أكثر عن 1167.

ملحق (4)

وقفية عادلة خاتون[1] المؤرخة في سنة 1171هـ/1757م

في سنة 1171هـ/1757م قررت تسجيل أملاكها وقفاً على لوزم جامعيها والمدرسة، وقد حضرت مجلس الشريف المنعقد في محكمة شرعية بغداد برئاسة قاضيها عبد الباقي أفندي المأذون بالقضاء، فوقفت البستان الواقعة خارج باب الاعظم، والخان الكائن في محلة الصفافير ...[2] في سوق الدنكجية، والمقهى في سوق القيصرية، والمقهى في الجانب الغربي على دجلة قرب الجسر، والدكان في رأس الجسر، والخان وأرضيته، والدكان في سوق الغزل، وسهم واحد من ستة أسهم من الدكان بقرب خان الأورتمة[3]، وأسكلة الخشب[4] المقابلة لجامع العادلية، والدار الكائنة في طريق...[5] الخاص، والدكانان في سوق السراي، والخان المحيط من...جهاته بجامع العادلية وأرضيته الخارجية، والبئر والدولاب على [دجلة]، والساقية القديمة الممتدة [الى] الجامع الشريف المقابلة... بحسب المذكور، وقطعة الأرض الشهيرة بارض المتوليّة[6] وجميع الدكاكين مقابل الجامع...لملك الحيدري. وشرطت ان يُبدأ بصرف غلة الموقوفات المذكورة على تعمير وترميم الجامعين الكبير والصغير والمدرسة إدامة لهما ثم على لوازم الجامعين ودفع رواتب المُدرِّس والإمام في الجامع الكبير، والامام في الجامع الصغير، ودفع رواتب المؤذنين، وقرّاء الدور والخُطباء والمُمَجِّدين والخدم وجميع ما

---

(1) لم نقف على اصل هذه الوقفية في سجلات وزارة الاوقاف وفي سجلات المحكمة الشرعية في بغداد فنقلناها بحروفها من ابراهيم الدروبي: بداية الوقف ونهايته، مخطوطة في مكتبة الاوقاف في بغداد.

(2) البياضات من الاصل.

(3) كلمة تركية تعني (المغطى) وهو خان مرجان، سمي كذلك لطراز عمارته.

(4) هدم المتولون على الجامع، في مطلع الحكم الوطني، هذه الأسكلة، وشيدوا في أرضها ثلاثة دكاكين يعلوها فندق (مسافر خانة).

(5) هو الدرب الذي كان معروفاً بدرب النملة، وقد استملكت الدار لتوسيع بناية البنك المركزي.

(6) هي البستان المعروف بالمتوليات، وتقع في الجانب الغربي (العطيفية الثانية حالياً) تقدمت الإشارة إليها في هذا الكتاب.

يقتضي الجامعين، ودفع مخصصات الواعظ في شهر رمضان المبارك، وأجور الماء والفراش والحصران والأباريق، وتنوير الجامعَين في ليالي رمضان وسائر الأيام، وشَرَطت فضلة الغلة الى ابن عمّتها وهو صالح بن عبد الرحمن باشا أمير أمراء شهرزور وكركوك ومن بعده لأولاده وأولاد أولاده ما تناسلوا وتعاقبوا نسلاً بعد نسل، وقف تشريك لا وقف ترتيب، بحيث يُشارك الابن والده، على أنه ليس للولد الأجنبي حظ في هذا الوقف[1].

وطلبت تسجيل وقفها وإصدار حجة شرعية بهذه الشروط، وشرطت أيضاً أن تكون التولية للأرشد فالأرشد من أولاد الموقوف عليه، وليس للمتزوجة بأجنبي حظ في التولية أيضاً، وبعد الترافع أمام القاضي الموقع اسمه أعلى الكتاب، حكم القاضي بصحة الوقف ولزومه، وأصدر الحجة الشرعية المؤرخة 19ربيع الثاني سنة 1171هـ[2] وقد حضر الشهود الآتي ذكرهم حين التسجيل وهم:

السيد محمود بن السيد علي نقيب الاشراف

ومولانا محمد افندي المفتي

ومولانا محمود افندي المفتي الشافعية

والسيد عبد القادر بن السيد عبد الله النائب سابقاً

---

(1) ثمة اختلاف هنا عن النص الذي أورده الدروبي في كتابه الآخر(فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 342أ) حيث جاء فيه" ووقفت جميع أملاكها المحرر أنواعها ومحلاتها في كتاب وقفها الآتي ذكره على لوازم وإدارة الجامعين المذكورين والفضلة إلى عمتها فاطمة خاتون بنت الوزير الكبير حسن باشا، وشقيقة والدها أحمد باشا، وعلى أولادها وأولاد أولاد أولادها، ذكوراً وإناثاً، بالتساوي بينهم، على أن من كان أبوه من غير الموقوف عليه فلا يدخل في هذا الوقف ولا يستحق شيئاً، أي أن أحدى البنات الموقوف عليها إذا تزوجت برجل أجنبي، أي من غير الموقوف عليهم، فأولادها لا حظ لهم في فضل غلة هذا الوقف، وهكذا ما تناسلوا وتعاقبوا، نسلا بعد نسل، وقف تشريك لا وقف ترتيب، بحيث يشارك الابن والده وابن الأخ عمه...". قلنا: فهذا النص جعل التولية لعمة الواقفة فاطمة، بينما حصر النص أعلاه هذه التولية بولدها صالح، وهو ابن عبد الرحمن باشا والي شهرزور، وقد ذكر الدروبي أن فاطمة خاتون قد تزوجت أيضاً بالوزير عبد الله الجتجي، وكان هذا أديباً شاعراً خطاطاً بارعاً.

(2) ويوافق يوم السبت 31 كانون الأول 1757م.

وفخر الائمة الكرام ملا خليل بن الشيخ سلمان

والامام محمد صالح افندي بن الشيخ عبد الرزاق

والسيد عبد الوهاب بن السيد عبد الله

وزبدة...[1] [شيخي] زاده محمد افندي المدرس

وفخر العلماء عبد الرزاق افندي بن عبد الحنان أمين الفتوى

وفخر الخطباء الكرام عبد الرحمن أفندي بن عبد الله أفندي السويدي مؤلف حديقة الزوراء

وفخر الأئمة والعلماء عبد الرحمن بن عبد الكريم

وياسين أفندي بن ملا احمد

ومحمد أفندي بن علي أفندي الكليتدار

وملا مصطفى خطيب الشيخ معروف بن ملا احمد

وملا محمد بن ملا أحمد

وملا عبد الكريم بن مصطفى

وعبد[الصمد][2] بن ملا مصطفى

وفخر النواب [حسن أفندي بن][3] حسين افندي نائب سابقاً

وعبد الرزاق بن ملا مصطفى

ومسعود بن الشيخ أحمد

ومحمد غريب آغا بن عبد الله

ورئيس العلماء علي أفندي وكيل مفتي بغداد

والسيد أحمد أفندي خطيب الأعظمية

ومحمد علي كاتب الفتوى

وأحمد أفندي مفتي الشافعية ببغداد

وملا عبد الكريم رَحْبي زاده

---

(1) بياض في الأصل.

(2) ما بين معقوفين توضحناه من الوقفية السابقة

(3) ما بين معقوفين توضحناه من الوقفية السابقة

وفخر الأماجد والأكارم دفتر دار بغداد حالاً سليمان بك بن محمد باشا
والشيخ ملا عبد الله السويدي
وملا محمد أفندي خطيب [جامع][1] الشيخ سراج الدين
وملا عبد الرزاق إمام جامع العاقولية
وملا إسماعيل إمام جامع حسن باشا
وعبد الرزاق أفندي ابن عبد السميع أفندي
وعبد الرحيم بن إبراهيم نظمي زاده
والحاج زكريا ابن محمود أفندي نظمي زاده
وعثمان بن يوسف أغا
وحمزة أفندي بن عبد السميع
وملا زكريا أفندي
وعبد الرحيم أفندي مقاطعة
وعبد الله أفندي خليفة روزنامجي .انتهى...

وقد صادق على هذه الوقفية القاضي ببغداد محمد عزيز أفندي و القاضي ببغداد طه زاده السيد أحمد أفندي بعد أن عُرضَت عليهما.

وبعد وفاة الواقفة قام الموقوف عليه صالح بك بإدارة الجامعين والمدرسة وفق شرط الواقفة، غير أن قرار تصفية وقف عادلة خاتون الصادر سنة 1958 قد أغفل شرط الواقفة واعتبر الوقف وقف ترتيب لا وقف تشريك، كما اعتبر أولاد المتزوجة من أجنبي من مرتزقة الوقف، وأورد أسماء الأحياء منهم و الأموات خلافاً للتعامل الجاري منذ تأسيس الوقف قبل أكثر من قرنين من الزمن. ويبدو أن المحكمة قد أصدرت قرارها قبل الإطلاع على الوقفية المؤرخة في 1171هـ /1757م التي سجلها المرحوم إبراهيم عبد الغني الدروبي، في كتابه (بداية الوقف ونهايته) وفيها شرط الواقفة وأعيان الموقوفات، وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة الاوقاف ببغداد، ولم تُبرَز في محكمة التصفية فلو أبرزت في حينه لتغير قرار الحكم.

(1) ما بين معقوفين زيادة يقتضيها السياق.

ملحق (5)

وقفية بشير أغا[1] على جامع العادلية[2]

حمدٌ موفور، شكرٌ غير محصور، نرفعه إلى الأعتاب المقدسة للواقف على أمور الجمهور، رب الأرباب، ومالك الرقاب، والصلاة والسلام ما مرّت الدهور وكرّت الأعوام والشهور على المرقد المُعطَّر، والمشهد المُنوَّر لسيد الأنام، وسنة[3] الخاص والعام، حبيب اللّٰه محمد المصطفى، وعلى آله الكرام وأصحابه الكرام. وبعد ...

فإن الباعث على تحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب، والداعي لتحرير هذا الخطاب، هو أن طالب الخيرات العميمة، وكاسب المَبرّات الجسيمة، معتمَد الملوك والوزراء، بشير آغا مُعتق المرحوم المغفور له ساكن الجنان القدسية أحمد باشا بن المرحوم الدارج الى رحمة الملك القيوم حسن باشا، من أغوات الحَرَم المكرم، والخدم المحتشم، لوالي مدينة بغداد والبصرة، الدستور المكرم، والمشير المفخم، ناظم نظام العالم، مدير أمور جمهور الأمم، المحفوظ بعواطف الملك المنان، حضرة سليمان باشا دام سره وفشا. حضر إلى مجلس الشرع الأحمدي وأفاد في حال حياته وكمال عقله وصحته وقت أن كان إقراره نافذاً قائلاً:

حيث أنني لاحظت أن الدنيا مزرعة الآخرة، ولأجل أن أزرع بذور الخيرات في مزرعة الدنيا وأحرث بذر الحسنات لتحصيل المَلَكات القدسية، وتكميل المعارف السنيّة، وصرف القدرة وبذل الهمّة في هذا السبيل، فإني أُقرُّ في مجلس الشرع الأحمدي، ومحفل الدين الحنيف المحمدي، بمواجهة سليمان أغا الوكيل المُعتمد الثابت الوكالة عن الحليلة الجليلة للوزير المشار إليه سليمان باشا، لا زال الحقُّ

---

(1) لم نقف له على ترجمة في مصادر العصر، ولكن يفهم من نص الوقفية أنه بدأ حياته مملوكاً لوالي بغداد أحمد باشا بن حسن باشا، ثم انتقل إلى خدمة الوالي التالي سليمان باشا، فعمل بوظيفة (حرم آغا سي)، وهو الذي يكون الواسطة بينها وبين اصحاب الطلبات والعرائض وغيرهم. وقد أعتقه سليمان باشا.

(2) أرشيف وزارة الأوقاف، السجل السادس، صفحة 152.

(3) لعل الصواب: سيد.

منقاداً إليه، قُدوة المخدرات، عُمدة المُوقّرات، ساحبة أذيال المَبَرّات عادلة خانم ابنة المُوما إليه المرحوم والمغفور له أحمد باشا، دامت عصمتها وصينت عن صوارف الدهر ذاتها، طوعاً وبرغبتي إني وقفتُ وحبستُ الأملاك المُنسلكة في سلك ملكي والتي تملكتها بفضل وإحسان سيدي في أيام دولته وسعادته، ومستفيداً من مرحمته وإحسانه، أنا العبد المُعتَق ورفيق الإحسان لسيدي، وهي:

مقاطعة الوقف القديمة الواقعة خارج باب الإمام الأعظم والهُمام الأكرم، رضي الله تعالى عنه، من أبواب مدينة بغداد دار السلام الحصينة، في الجهة الشمالية من قصبة الإمام المشار إليه بجوار نهر دجلة العظمى، والذي هو تحت تصرفي وفي يدي بموجب الحجَج الشرعية والسندات المرعية الناطقة بذلك، والمحدودة شرقا بالطريق العام المعروف بأسم طريق ينيجة[1] المكون الحد الفاصل بين هور غَرَق[2] وأراضي الدواليب الأخرى، وغرباً نهر دجلة العظمى، وجنوب نهر الشيخ القديم المتفرع من دجلة العظمى، والمار من الجهة الجنوبية لباب الدولاب العائد لي، المعروف باسم حسن، والممتد الى المحل المسمى تل العجوز الواقع مقابل الدولاب المذكور، وشمالاً الموقع المعروف باسم التلول، المُشكل الحد الفاصل بين الدواليب المسماة بَدّران[3] وتل الضليعات والدباغية، وهي المقاطعة البالغة إيرادها سنوياً غرشان ونصف، مخصصاً لوقف الإمام المشار إليه مع البكرة المنصوبة على عَرَصَة المقاطعة المذكورة.

وكذلك وقفت أرض مزرعتي المسماة دولاب الفحّامية التي هي مقاطعة كبَدل شواطئ لقاء الزراعة المَطريّة، ومن الماء الذي يطغى على وقف الإمام المشار اليه

(1) هي القرية التي كتب أسمها في مصادر العصر بـ (ينكجه) وتعرف اليوم بجديدة الشط.

(2) هور الغرق، هو المنخفض الذي بني المجمع العلمي على قسم منه، وقد لبثت بقايا قصبه ترى في أرضه حتى سبعينات القرن الماضي، فما يسميه بالطريق العام هو نفسه طريق الخالص القديم.

(3) في وقفية أحمد باشا بن حسن باشا على مرقد أبيه قرب مرقد الإمام الأعظم المؤرخة في 28 صفر 1153 هـ/1740م نقرأ ان من جملة الموقوفات «دولاب ومزرعة القميرة في بغداد خارج باب حضرة الامام الاعظم في منطقة الدواليب الخمسة المحدودة بمزرعة الفحامية ومزرعة مراد وبالدجلة وبالطريق العام».

والبالغ مقدارها خمسون غرشاً وكذلك... الدولاب المبنية على أرض المزرعة المذكورة مع جملة توابعها ولواحقها وكافة حقوقها ومرافقها واشترطت ثوابه إلى المرحوم والمغفور له أحمد باشا المشار اليه وقفا مؤبدا وحبساً مخلدا. وقد اشترطت وعَيَّنت الشروط والقيود التالية:

أن يتم إخراج ما يلزم لتعمير مقاطعة بكر... ومقاطعة بدل الزراعة بطغيان الماء والمطر وأبوابها، وذلك من العقر والأعشاب المُعيّنة التي أتصرَّف بها والمتحصلة من أرض الدولاب المذكور، والفضلة الباقية تكون لي إن بقيتْ فضلة ما دمتُ لابساً لباس الحياة، وبعد وفاتي يتم إخراج المصاريف على الوجه المُحرّر، وتُقسَّم الغلة الحاصلة المنافع من الأعشار إلى قسمين، يُعطى قسم لقاء القيام بالتولية إلى المُوكلة المشار إليها أو إلى من تختاره الموما إليها للقيام بالتولية المذكورة. ويُعطى من القسم الثاني مبلغ قدره خمس آقجات لكل واحد من ثلاث أشخاص يقومون بتلاوة القرآن العظيم الشأن، في جامع عادلية الشريف المُنشأ لخيرات المغفور له المشار اليه أحمد باشا طيَّب الله ثراه، والواقع قرب محكمة مدينة بغداد دار السلام، على أن يتلو اثنان منهم يومياً جزءاً من القرآن الشريف، لكل واحد. ويتلو الثالث يومياً ياسين الشريف المذكور بعد ضَمّه إلى واردات ذلك الجامع، وتعطى المنافع الحاصلة من العقر إلى محمد بن عبد الله الذي سبقت خدمته لي وللدولاب المذكور، والذي هو بمقام ولدي، ومن بعده إلى أولاده وأولاد أولاد أولاده الذكور طبقة بعد طبقة، للذكر مثل حظ الأنثيين.

أما الدولاب المذكور فكما يقوم الموما اليه محمد في حال حياتي لبذل الجهد لحَرثه وزراعته، ويؤدي عُقر وعشر إليَّ، فعليه أن يقوم بعد وفاتي ببذل الجهد على المنوال المذكور وأن يقوم بالزراعة والحراثة، ويكون عُقره لنفسه، وبعد وفاته لأولاده على الترتيب، وهؤلاء أيضاً يتصرفون في الدولاب المذكور كما يتصرف والدهم فيه، ويكون عُقره لهم، أما العُشر فيؤدونه إلى الجهات المذكورة التي حددتها. وقد اشترطت أن يكون أمر تقليل وتكثير الموقوف عليهم وإدخالهم وإخراجهم، وأن أملك تبديل وتغيير الشروط المذكورة مرة بعد أخرى، ويكون أمر

الإستبدال أيضاً بيديَّ مرة بعد أخرى، وكذا يكون ايجاره لسنين كثيرة أو قليلة بيدي، ويكون ذلك بيد من يُعَيَّن متولياً من بعدي، وإذا انقطعت ذرية الموما اليه محمد بالكلية فيتم ضم العقر المذكور إلى واردات وقف الجامع الشريف المذكور ويصرف على مصالحه، وإذا أصبح صرف المحصول ومنافع الوقف المذكور على مصالح الجامع الشريف بمرور الأيام وكرور الأعوام غير ممكن، فيتم إفراز لجهة التولية وجهة قارئ الجزء وقارئ ياسين من الأعشار على الوجه المذكور ويرسل الباقي من الفضلة بمعرفة المتولي أو من قبله إلى فقراء المدينة المنورة على مُشرَّفها أزكى السلام والتحية.

وإني بعد أن عيَّنتُ هذه الشروط وحددتُ هذه القيود سلّمتُ أرض المزرعة المذكورة العائدة لي وأبواب الدولاب المبنية عليها، خالية عن الشواغل، إلى وكيل المتولي الموما اليه سليمان أغا الذي بدوره قبضها بموجب الوقفية، وتصرَّف فيها كتصرف سائر وكلاء المتولين على الأوقاف.

وبعد التصديق الشرعي وجه الواقف المذكور كلامه من سمة الوفاق إلى جانب الشقاق قائلاً: إني رجعت عن وقفية أرض المزرعة المارة الذكر وأبواب الدولاب المبني عليها، وأقام الواقف الدعوى بمواجهة الوكيل الموما اليه سليمان أغا قائلاً: ولو أن بناء الوقف صحيح في المذهب الشريف لبعض المشايخ الكرام، إلا أن الواقف إذا وقف منافع الوقف لنفسه يكون باطلا لدى الإمام محمد بن حسن الشيباني، وعاطلاً عن حلية الصحة، وبناء على ذلك فإني رجعت عن وقف أرض المزرعة المذكورة وأبواب الدولاب المشيدة عليها، فأطلب إعادتها ورفع يد وكيل المتولي المذكور عنها.

ولدي السؤال أجاب الوكيل المذكور: ولو أن بناء الوقف يكون في الواقع باطلاً وغير صحيح لدى بعض الأئمة الكرام، إذا اشترط الواقف منافع الوقف لنفسه، وإن ذلك ثابت، ولكن البعض الآخر ذهب إلى صحة هذا النوع من الوقف، وانه لدى حضرة الإمام الثاني أبي يوسف وان كان الوقف مقترناً بالشرط المذكور إلا أن الوقف يكون صحيحاً بمجرد قول الواقف: وقفته، واليوم العمل جار وفق هذا

الرأي. وامتنع عن تسليم الوقف. وترافع الطرفان لدى حضرة الحاكم موقع صدر الكتاب، طوبى له وحسن مآب، وطلب كل منهما الفصل والحسم وفق إدعائه.

وإن الحاكم الموما إليه لا زالت الأحكام نافذة بين يديه، بعد أن تأمّل وتفكر في أدلة الطرفين فأنه رجع واختار جانب الوقف تقديماً وإيثاراً لجانب الوقف. فحكم بموجب رأي بعض المشايخ الكرام ومسلكهم اللطيف بتجويز هذا الوقف حكم بصحة وقف أرض المزرعة المذكورة وأبواب الدولاب المبنية عليها مع شرطها المذكور، وبعد هذا الحكم تجادل المترافعان المذكوران في أمر اللزوم وتنازعا حول ذلك، فرجَّح الحاكم الموما إليه- دام الحق جارياً بين يده – مرة ثانية، تشييد مباني الوقف مع علمه بالخلاف الجاري بين الأئمة الإشراف في أمور الأوقاف ، فحكم على قول من يرى اللزوم مستلزماً وللصحة بلزوم الوقف المذكور بعد تسجيل ذلك وقفاً صحيحاً ولازماً، فمن بَدّله بعدما سمعه فإنماً إثمه على الذين يبدلونه إن اللّه سميع عليم وأجر الواقف على الحي الجواد الكريم.

حُرّر في اليوم الثامن من جمادي الأولى لسنة خمس وسبعين ومائة وألف[1].

وفي أعلاه «حَكمتُ بصحته ولزومه عالماً بالخلاف بين الأئمة الأشراف، نمّقه العبد الفقير إلى المولى القدير محمد عزيز القاضي بمدينة بغداد».

(1) ويوافق يوم السبت 5 كانون الأول 1761م.

ملحق (6)

وقف مزرعة على جامع العادلية

ورد في السجل 4/118/508 من سجلات المحكمة الشرعية ببغداد أن صالح بك بن سليمان بك بن حسن بك، متولي أوقاف عادلة خاتون، وقف في 29 ربيع الأول سنة 1236هـ/1820م مزرعة واقعة في الصليخ[1] على لوازم جامع العادلية[2].

ملحق (7)

أعلام شرعي حول التولية على وقف عادلة خاتون

(1) هي أرض الشماسية في العصر العباسي، شرع الموسرون من أهل بغداد في شراء مناطق واسعة منها منذ القرن الثاني عشر للهجرة (18م)، وغرسها بساتين ذات نخل مثمر، فزاد العمران تدريجيا فيها، وظهرت الحاجة إلى رفع المياه من دجلة لسقي هذه البساتين، فأنشأ المالكون آباراً نصف اسطوانية تسمى صلخاً، ومن هنا عرفت المنطقة بالصليخ. كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد ص79.

(2) ابراهيم الدروبي: فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، الورقة 7.

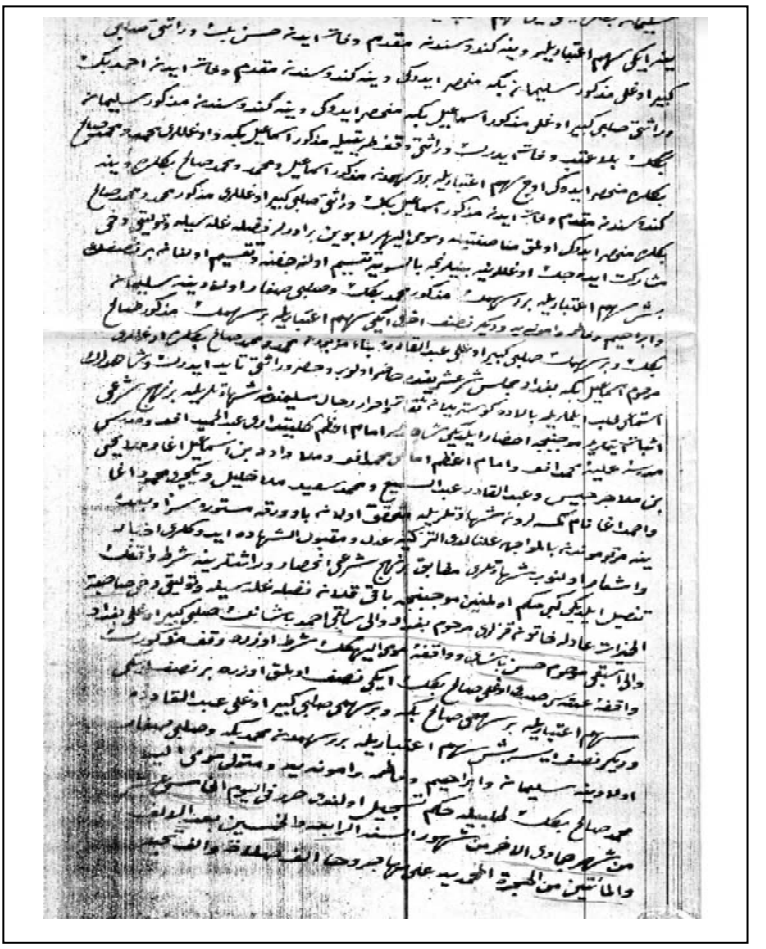

بقية من صورة الوثيقة السابقة

صورة الأعلام الشرعي الصادر عن المحكمة الشرعية حول طلب محمد صالح بن إسماعيل بك انحصار تسجيل توليته على وقف عادلة خاتون به وأولاده، نظراً لوفاة سليمان بك بن حسن بك ابن فاطمة خاتون عمة الواقفة عادلة خاتون دون عقب، وكانت انحصرت وراثته بطريقة الوقف باسماعيل بك المذكور وأولاده محمد ومحمد صالح وإن ابناء محمد هم سليمان وابراهيم وفاطمة وامونة، وإن أبناء محمد صالح هم عبد القادر. وقد استند الإعلام إلى وقفية عادلة خاتون المؤرخة في 10 ربيع الآخر سنة 1170هـ/1756م والحكم اللاحق الصادر في 3 صفر سنة

1236هـ، والإعلام الشرعي الصادر في 10 من شهر رمضان سنة 1251هـ/ 1738م. وجرى صدور الإعلام في 15جمادى الآخر من سنة 1254هـ/1838م وذلك بشهادة كل من:

عبد الحميد افندي كليددار جامع الإمام الأعظم

محمد أفندي مدرس المدرسة العلية

محمد أفندي إمام جامع الإمام الأعظم

داود بن اسماعيل اغا

ملا يحيى بن ملا جرجيس

عبد القادر عبد السميع

محمد سعيد ملا خليل

يكجري محمود آغا

أحمد آغا

الملحق رقم (8)

نص الكتابة التي على الشاهد التذكاري لضريح عادلة خاتون[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [27] ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [28] فَادْخُلِي فِي عِبَادِي [29] وَادْخُلِي جَنَّتِي [30]) (صدق الله العظيم)

الفاتحة

هذا مرقد صاحبة الخيرات والمبّرات المغفور لها عادلة خاتون بنت احمد باشا والي بغداد (1135هـ- 1161هـ) فاتح همدان، وحفيدة حسن باشا الأيوبي والي بغداد (1116هـ- 1135هـ) فاتح كرمنشاه وزوجة سليمان باشا أبو ليلة والي بغداد (1163هـ- 1175هـ) وشقيقة عائشة خاتون زوجة عمر باشا والي بغداد (1178هـ- 1189هـ).

---

(1) كان المتولي الحاج أمين المميز قد سعى لدى وزارة العدل لإقامة شاهد تذكاري يُثبَّت على ضريح السيدة عادلة خاتون، واقترح النص التالي ليكون على ذلك الشاهد. وقد وافقت محكمة الأحوال الشخصية في الرصافة على هذا المقترح بكتابها المرقم 161/م21 المؤرخ في 1992/2/27 وجاء في الكتاب المذكور الموجه إلى رئاسة محكمة استئناف منطقة بغداد مانصه "طلب إلينا السيد أمين المميز المتولي على وقف عادلة خاتون المصفى بكتابه المرقم 456 والمؤرخ 1992/2/18 السماح بتثبيت شواهد خطية على قبر المغفور لها عادلة خاتون الموجود في إحدى غرف محكمة الأحوال الشخصية في الرصافة وهي التي أوقفت عموم ارض هذه المحكمة وملحقاتها وقفا مؤبدا لتكون محكمة شرعية لقضاء حاجات المسلمين وصارت عائديتها إلى وزارة العدل. وان هذه المحكمة هي حسنة من حسنات المغفور لها، ولا ضير من قبول الطلب بتجديد القبر على نفقه المتولي وتزيينه بالشواهد وإجراء تحسينات الغرفة التي تحتويه، ولا يؤثر ذلك على سير أعمال المحكمة، وان المغفور لها تستحق كل العناية بقبرها جزاها الله عن المسلمين خير الجزاء. ونرفق بطيه نسخة من الطلب المشار إليه للتفضيل بالعلم مع التقدير.

القاضي الأول

مهدي صالح محمد أمين

أنشأت هذه السيدة المحسنة عدة منشآت مهمة لصالح المسلمين، ووقفت أوقافها الواسعة في بغداد وخارجها للانفاق عليها، منها تعميرها هذه المحكمة وداراً خاصة لسكنى القضاة، ومنها جامع العادلية الكبير المقابل للمحكمة والمدرسة الملحقة به، وجامع العادلية الصغير الكائن في محلة (الدنكجية) (عَكَد الصَّخر) مقابل المتحف البغدادي، وقد تهدم الجامع المذكور وأنشئ بدلاً عنه جامع عادلة خاتون في الصرافية سنة 1963م مع القاعة الملحقة به.

توفيت الواقفة في غرة محرم الحرام سنة 1182هـ الموافق 18 أيار سنة 1768م ودفنت مؤقتاً عند مرقد أبيها وجدها بجوار مرقد الإمام الأعظم ثم نقل الرفات إلى باحة المحكمة الشرعية. وبعد إعادة بناء المحكمة سنة 1934م نُقل الرفات إلى هذه الحجرة أحفاد عمتها فاطمة خاتون بنت حسن باشا المتولون على أوقافها المغفور لهم عبد الجبار بن إبراهيم المميز بن محمد بك وعبد القادر بن عبد الوهاب بن قدوري بك وعبد الستار بن عبد الجبار بن إبراهيم المميز.

وتم إعداد الشاهد وصيانة المرقد والحجرة على نفقة متولي إدارة أوقافها الحاج محمد أمين بن عبد الجبار بن إبراهيم المميز وأبناؤه الدكتور إبراهيم والمهندس صالح والمهندس فيصل والأستاذ فؤاد وابنته السيدة سهى ووالدتهم الحجة رفيعة جميل الفهد وقد ساهم الجميع بطريقة أو بأخرى في الحفاظ على هذا الرمز العائلي والتراث الوطني العراقي، وتم انجازه في اليوم الأول من شهر كانون الأول 1996م الموافق 21 رجب الخير عام 1417هـ.

لصاحبة هذا المرقد المغفرة والرضوان وللمتوفين من أسرتها الرحمة والغفران وللأحياء منهم جزيل الثواب وحسن مآب.

ملحق (9)

المتولون على وقف عادلة خاتون[1]

1- محمد صالح بك الكبير

2- إسماعيل بك الكبير بن محمد صالح بك الكبير.

3- محمد بك بن إسماعيل بك الكبير.

4- صالح بك بن إسماعيل بك (توفي 1274هـ/1857م)[2] .

5- قدوري بك بن صالح بك (توفي 1298هـ/1880م).

6- إبراهيم أفندي المميز بن محمد بك[1] (توفي 1323هـ /1905م).

---

(1) تولت اوقاف عادلة خاتون عمتها فاطمة خاتون، وقد تزوجت هذه من رجلين، أولهما عبد الرحمن باشا، فأنجبت منه حسن بك، وقد ولد لحسن بك سليمان بك، وكلاهما تولى الأوقاف المذكورة، وأشير إلى سليمان بك بن حسن بك متولي جامع العادلية شاهداً على وقفية الوزير داود باشا والي بغداد المؤرخة في 7 شعبان 1236هـ/1820م وفي وقفيتي داود باشا المؤرختين في 7 رجب 1236 و11 شعبان 1236هـ. وفي وفي وقفية حسن بن صالح الخياط بن الحاج حسن على ذريته المؤرخة في 2 صفر 1246هـ شهادة لصالح بك متولي جامع عادلية. ينظر كتابنا معالم بغداد في القرون المتأخرة ص132، ثم أن فاطمة خاتون تزوجت من عبد الله باشا الجتجي، ولما لم يكن سليمان بك بن حسن بك عقب، انتقلت التولية إلى محمد صالح بك بن عبد الله باشا فولد لهذا اسماعيل بك، على ما ورد في هذا الملحق الذي قدمه لنا الحاج أمين المميز. وذكر لنا الأخير أنه منذ وفاة صالح بك المذكور، امسى الوقف يدار في بعض الأحيان من قبل دائرة الأوقاف، وذلك لأسباب تتعلق بالخلافات بين المرتزقة حول التولية وتعيين الارشد منهم متولياً على الوقف. وذكر ابراهيم فصيح الحيدري أن «من البيوت الرفيعة القديمة بيت حسن بك متولي جامع العادلية، وهو بيت مجد وخير وهم من أولاد صالح باشا والي كركوك [والصحيح أن والده عبد الرحمن باشا هو الذي تولى شهرزور ومركزها كركوك] ولم يبق منهم أحد» ثم أعقب ذلك قوله «ومنها بيت الجتجي [هكذا في النسخ الخطية وفي المطبوع الجرجفجي خطأ] وهو من بيوت العز، ولهم قرابة نساء مع بيت متولي العادلية، وبتلك القرابة نالوا تولية الجامع المذكور بعد انقراض بيت حسن بك وبقي من هذا البيت بعضهم» (عنوان المجد ص99). قلنا: وكل من الفرعين هم من ذرية الموقوف عليها وعلى ذريتها فاطمة خاتون عمة الواقفة عادلة خاتون .

(2) نسبت إليه (دربونة) في محلة جديد حسن باشا باسم (عقد محمد صالح بك).

7- الحاج عبد الوهاب بك بن قدوري بك (تفي 1331هـ/1912م).

8- الحاجة مريم بنت قدوري بك (1341هـ /1922م)[2].

9- عبد الجبار بك بن ابراهيم أفندي المميز (توفي 1358هـ / 1939م) .

10- عبد القادر بك بن الحاج عبد الوهاب بك (توفي 1374هـ/ 1954م)[3].

11- محيي الدين بك بن الحاج عبد الوهاب بك (توفي 1381هـ/1961م).

12- عبد الستار بك بن عبد الجبار بك (توفي 1390هـ/1970م).

13- الحاج محمد أمين بك بن عبد الجبار بك المميز (المتولي لادارة الوقف المصفى، توفي سنة 1997م رحمه الله تعالى).

---

(1) استشهد في إثناء أداله الواجب سنة 1323هـ/1905م في قضاء الشامية (انظر ملابسات الحادثة في ودّاي العطية :تاريخ الديوانية، النجف 1954، ص 85 ـ 86) وهو أول من عرف بالمُميِّز(عنوان وظيفة في دائرة المالية في ولاية بغداد) وعرفت أسرته بهذا اللقب من بعده . أثنى عليه ابراهيم الدروبي فقال أنه «ذهب ضحية نزاهته وعفته ومات شهيدا في الشامية عندما انتدب من قبل الولاية لتقدير الرسوم الأميرية المفروضة على المزارعين والملاكين والضرب على أيدي المرتشين من الموظفين وغيرهم»، وأشاد بمجلسه الحافل فقال" لهذا الرجل الفذ مجلس من مجالس الرصافة في داره الكائنة في محلة رأس الجسر القديم جانب الرصافة كان يختلف إليه وجوه الدولة مدنيهم وعسكريهم وأعيان الأمة علماؤهم وتجارهم وزراعهم وأكابر القوم.. وقد بقي هذا المجلس رفيع العماد محترم المكانة بمن أعقب صاحبه من الذرية الصالحة والحفدة الكرام أخص منهم ولده عبد الجبار بك المميز.. وكان هذا الرجل يشغل تولية الجامعين وموقوفاتهما وكان من الخيرة البررة.. وأعقبه أولاده الكرام عبد الستار بك المميز المتولي الحالي على الجامعين وموقوفاتهما وقد انتخب عضوا في مجلس أمانة بغداد فكان مثالا للنزاهة والعفة واشتهر بقضاء مصالح الناس، ومعالي الوزير الأستاذ الفاضل السياسي المحنك والدبلوماسي القدير أمين بك المميز فإنهما قاما مقام أبيهما في مجلسه خير قيام" . البغداديون ص121.

(2) قال الدروبي " كان له مجلس حافل بالعلماء والفضلاء" .

(3) كان أديباً وصحفيا لامعا أصدر جريدة سماها (أبو حمد). قال الدروبي "كان له مجلس في قصره العامر بالصرافية يجتمع فيه الأدباء والعلماء والشعراء والظرفاء والكبراء وأمراء الدولة، وكان محبوبا عند الناس لكريم سجاياه وحسن صفاته" . البغداديون ص121.

جسر الصرافية وقد أنشئ على جانب من أرض الصرافية من أوقاف عادلة خاتون وذلك في المدة 1946 إلى 1952

ملحق رقم (10)

ملاحظة عن تصفية وقف عادلة خاتون

في سنة 1954 تبنت الوزارة القائمة يومئذ لائحة تقضي بتصفية الوقف الذري، فتبنى الحاج محمد امين المميز، متولي إدارة وقف عادلة خاتون، حملة لمعارضة تلك اللائحة، وذلك بارسال الرسائل والبرقيات العديدة ومقابلة المسؤولين، واستحصال الفتاوى، من ذلك البرقية التي أرسلها من جدة، في 1حزيران 1955 الى محكمة بداءة بغداد، وكانت تنظر في دعوى التصفية، ونصها «أرفض تصفية أوقاف عادلة خاتون رفضاً باتاً، واستجير بوجدان المحكمة للمحافظة على تراث اجتماعي ظل قائماً اكثر من قرنين. الوقف لا يعود فقط للماثلين امامكم المتكالبين على اقتسام أسلابه، إنما يعود أيضاً لأفراد مازالوا في الظهور والبطون. ذكّروهم بقوله تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (صدق الله العظيم) أمين المميز[1].

ولما لم تفلح جهوده في الحيلولة دون اصدار القرار، صدر في 1968/10/9 قرار محكمة بداءة بغداد المرقم 229/ 55 المُصدَّق من محكمة تمييز العراق، ونُفذ الحكم المذكور وتمت تصفية معظم أعيان الوقف باستثناء بعض الأعيان التي لم تُصَفَّ بعدُ، نظراً لجسامة أعيان الوقف المذكور وكثرتها، وتنفيذاً للحكم المشار اليه جرى تسليم جامع العادلية الكبير والنفقات اللازمة لإعادة بناء جامع العادلية الصغير وإدامة وصيانة الجامعين الى مديرية الأوقاف العامة (وزارة الأوقاف فيما بعد) وقطعة الأرض المخصصة لبناء الجامع الأخير في بستان الصَّرّافية، اضافة إلى حصة الجهة الخيرية البالغة عشرة بالمائة من كل عقار تجري تصفيته، ولم يبق من أثر للواقفة المحسنة سوى قبرها الكائن في حجرة خاصة في المحكمة الشرعية (محكمة الاحوال الشخصية في الرصافة فيما بعد).

---

(1) ان البرقية المنشورة أعلاه وفتاوى العلماء والمراجعات والمقابلات والمخابرات وسائر الجهود المبذولة لرفض تشريع قانون تصفية الوقف الذري منشورة في كتاب (بغداد كما عرفتها) تأليف الحاج أمين المميز مع نص العريضة المرفوعة الى رئيس مجلس النواب بتاريخ 30/ 1/ 1954 التي نعيد نشرها نظراً لاهميتها لتكون درساً بليغاً للاجيال الصاعدة في الحفاظ على التراث الوطني والتاريخ الاسري.

ملحق (11)

العريضة التي رفعها الحاج أمين المميز إلى رئيس مجلس النواب للحيلولة دون تصفية الوقف الذري

بغداد في 1954/1/30

معالي رئيس مجلس النُوّاب المحترم

بعد الاحترام...

ينظر مجلسكم العالي بلائحة قانون جواز تصفية الوقف الذري، وبالنظر لمَساس هذه اللائحة بحق طبيعي من حقوقي التي ضمنتها لي ولكثيرين غيري من ذوي العلاقة كافة الشرائع أتقدم إليكم بهذا النداء مناديا به ضميركم وضمائر حضرات أعضاء المجلس العالي:

إني أحد ذوي العلاقة بوقف ذري وَرِثه الجيل الذي أنا واحدٌ من أفراده من أسلاف خيِّرين توارثوه خلفاً عن سَلف لعدة قرون خَلت، وقد حافظ الأسلاف على هذه الأمانة فأودعه الآن لجيلنا الحاضر المكلف بالمحافظة عليها لتسليمها إلى الخلف كما ورثناها بل وأفضل. وقد جاءت هذه اللائحة لتَهَد هذا التراث، ولتشتيت شمل هذه الأمانة دون ما مبرر.

فالتجأت اليكم بصفتكم رئيساً للهيئة التشريعية المكلفة بالنظر بهذه اللائحة مستجيراً لحمايتي من جَور أشعر أنه أحاق بيَّ، وتجاوزٍ أشعر أنه وقع على حق طبيعي من الحقوق التي ضمنها لي الشرع الشريف وأقرها دستور البلاد، واعترفت بها لائحة حقوق الانسان التي شرعتها أسرة الأمم المتمدنة التي تنتمي اليها دولتنا، وأخيراً أشعر بقرارة نفسي حق الفرد في العقيدة والايمان والاحتفاظ بالتراث الاجتماعي وعلى الأخص إذا كان هذا التراث قد لازم تاريخ الفرد لعدة قرون وهو حق لايجوز أن تقيده قوانين الدولة مهما كان الهدف من تشريعها.

سيدي...

إني سوف لن اناقش هذه اللائحة من الناحية الفقهية، فالفقهاء مَدعوون لقول كلمتهم، وأنتم مدعوون لفتح أذهانكم وقلوبكم لاستماعها، واني لن أناقش

هذه اللائحة من الناحية الدينية او الروحية فرجال الدين وحُماته وعلمائه وأعلامه مَدعوون لقول كلمتهم، وأنتم مدعوون لفتح بصائركم وقلوبكم للإصغاء اليها، ولن أناقشها من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية فقد قال ذوو الرأي والخبرة كلمتهم ولكنها لم تَلقَ أُذناً صاغية.

سيدي رئيس الهيأة التشريعية...

إن من لا ماضٍ يعتز به لا حاضر له يتشرف به، ولامستقبل له يفخر به، والافراد كالأمم فكما أن لا خيرَ في أمةٍ لا ترعى ماضيها فلبئس الفرد الذي يقطع بيديه صلة ماضيه بحاضره وبمستقبله تخبطاً وطمعاً وجهلاً. فالوقف يا معالي الرئيس هو تراث نبيل القصد، سامي الهدف، ولا شائبة فيه كمؤسسة اجتماعية اقتصادية روحية إذا ماعقد أولو الامر نيتهم لاصلاحها وتهذيبها لتطابق مقتضيات العصر. أما أن يكون التفكير بالإصلاح عن طريق الهدم وإزالة معالم الأثر وقطع صلة الماضي بالحاضر والمستقبل فهي إساءة لا يغفرها الله، ولن تُقرُها الأجيال المقبلة. إننا يا سيدي الرئيس نعيش- مع الأسف- في عصر خفَّتْ فيه موازين القيم الروحية وطغت فيه نفثات الروح المادية والنفعية على نفوس البشر، وضعف- وا أسفاه – الإيمان وتزعزعت الرحمة في قلوب الناس حتى صاروا يستخفون بالأحياء وبالأموات، فلا للقديم حُرمته ولا للمُقدَّس قدسيته، ولا للمجد التليد قيمته، ولا للتراث الخالد اعتباره. ولقد ارتفعت معاول الهدم من كل حَدب وصَوب ولن يسلم منها حتى راقدو القبور.

سيدي الرئيس...

إني أحد ذوي العلاقة بوقف ذُرّي لو قدر الله وأقر مجلسكم العالي لائحة إلغائه لكنتُ من أول المتنعمين بخيراته ومن أكثر المستفيدين من مادته. ولو كنت من الذين يَرَون أن المادة هي كل ما يعيش المرء من أجلها لكنت اول المُرحبين بهذه اللائحة. ولكن في كل مجتمع بشري من قد يرى في القيم الروحية مهما بلغت قيمتها بالسوق الدارج. وإني أحد أفراد هذا المجتمع من الذين يرون هذا الرأي. فقد وجدت يا سيدي الرئيس نفسي أمام أمانة سلمت إلى الجيل الذي أنا منه، فتسلمها طائعاً وتسلم معها عهداً بلزوم المحافظة عليها وتسليمها الى الجيل

الاخر، وإني لأشعر بأن عليَّ واجب الدفاع عن هذه الأمانة التي هي في الواقع ليست لي وحدي أو لأحد آخر غيري من أفراد هذا الجيل، إنما هي وديعة من الأسلاف الى أخلاف ما زالوا في الظهور وفي البطون. فلهذا ليس من حق أحد من هذا الجيل حاكماً أو محكوماً، مُشرِّعاً أو مواطناً أن يتصرف بأحوال شخصية قررتها أجيال سالفة عن طوعها وبرضائها، وحق الواقف في تنفيذ شروطه كنص الشارع سواء بسواء.

ثم يا سيدي الرئيس – أنا لست رجعياً ولا ممن يقولون بالخرافات، ولا ممن يؤمنون بالأدعية وبالتمائم أو يُذعنون للأوهام. وإنما أنا فرد من المسلمين أؤمن بالله وبكُتُبه وبرُسُله وباليوم الآخر، وفي عنقي لكل ما أؤمن به حق وفي قلبي كل ما يخص إيماني حُرمة ورعاية.

ومن جملة ذلك حُرمة الموتى ورعاية حقهم في أموالهم ومراعاة رغباتهم فيما ملكوا وأوقفوا. وعندي إيمان قاطع راسخ بأن للوقف حرمة وإن للوقف (حَوبة) لابد أن تصيب كل من يسيء إلى وقف، أو يضمر له شراً، أو يحاول فيه طمعاً أو كسباً. فوالله ما من أحد أساء لوقف حتى لقي جزاءه من الله إن عاجلا أو آجلاً، فنُكب إن بحياته أو برزقه أو بماله أو بمَن هو عزيز عليه، والشواهد على ذلك لا تُعَد ولا تُحصى (واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون)...

هذا نداء أوجهه إلى مجلسكم العالي فليفكر كل نائب كريم أكثر من مرة وليتدبر أمر الله قبل أن يعلن موافقته على إلغاء الوقف. وانتم ياسيدي الرئيس ملتمسين بتدبير الأمر مَليّاً قبل أن تساهموا بخطأ سيحاسبكم الله عليه يوم القيامة حساباً عسيراً (وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

سيدي الرئيس...

إن إصلاح الوقف ليس بالأمر المستحيل فلم تجر أي محاولة جدية لإصلاحه، واني لأتحدى كل مُدّعٍ بأن الإلغاء هو أفضل طُرُق الإصلاح، فلتجرب الحكومة طُرق الإصلاح فإذا لم تتحقق الغاية كان لها أمام الله والتاريخ مبرراً لإقدامها على الإلغاء.

فأرجو أن تتفضلوا بتوزيع عريضتي هذه على حضرات النواب عندما يُدعَون لإبداء رأيهم بصدد اللائحة حتى يكونوا على بَيِّنة من خطورة الأمر الذي سيقررون، وحتى لا يُشكلوا ذممهم ويظلموا ضمائرهم من حيث لايعلمون.

وإن الله لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً.

أمين المميز

صاحب علاقة بوقف ذري

صورة الى:

فخامة رئيس الوزراء

معالي رئيس الديوان الملكي

معالي وزير الدولة لشؤون الأوقاف

ملحق (12)

قرار بإثبات أن الأرض التي على دجلة في محلة باب الآغا من أوقاف عادلة خاتون

رقم القرار / 24 / استئنافية / 1969

تاريخ القرار / 31 / 8 / 1969

أقام المدعي (المميز) الدعوى المرقمة 109 / 66 لدى محكمة بداءة بغداد جاء فيها أن الملك تسلسل 456 باب الآغا البالغة مساحته 175 متراً مربعاً غير مسجل باسم أحد في دائرة الطابو ولما كانت الأرض الأصل فيها أن تكون عائدة للخزينة وبما أن المدعى عليه (المميز عليه) يعارضه في تسجيلها باسم الخزينة بدون وجه حق ودون أن يكون له سند قانوني بذلك لأن هذه الأرض تعود بالأصل إلى وزارة المالية وأن تصرف المدعى عليه بها كان غير قانوني ، طلب عن مرافعة الحكم بمنع معارضته بتسجيل الملك المذكور باسم الخزينة وتحميله المصاريف . فأصدرت محكمة البداءة بتاريخ 3 / 3 / 1968 حكماً وجاهياً يقضي برد دعوى المدعى عليه وتحميله المصاريف مؤسسة حكمها على أنه ثبت لها من الكشف الجاري بمعرفة مهندس الطابو أن القطعة موضوع الدعوى منفصلة عن نهر دجلة بقطعة أخرى تسلسل 1439 باب الآغا وبأنها من أوقاف آل المميز على النحو الثابت بحجة الوقفية المؤرخة في 10 رمضان سنة 1251 هجرية وقد صدر قرار بتصفيتها من قبل محكمة بداءة بغداد بعدد 229 / 955 . فاستأنف المدعي الحكم المذكور لدى محكمة استئناف بغداد وسجل استئنافية بعدد س /110 /968 وطلب فسخه للأسباب التي أوردها في لائحته الاستئنافية. فأصدرت محكمة الاستئناف بتاريخ 18 / 11 / 968 حكماً وجاهياً يقضي بتأييد الحكم البدائي ورد الاعتراضات الاستئنافية بعد أن تبين لها أن محكمة البداءة قد عملت بمقضتى الفقرة الثانية من المادة 500 مدني حيث استمعت إلى بينة الطرفية فعجز المدعي بداءة وكذلك استئنافاً عن تقديم بينة تثبت مدعاه وكان كل ما تمسك به هو قوله أن هذه القطعة هي جزء متمم للشاطىء الاميري فتعد لهذا

السبب أرضاً أميرية بينما ثبت في الكشف الجاري بداءة عدم صحة هذا الإدعاء كما ثبت من البينات التحريرية والشخصية التي أقامها المستأنف عليه (المدعى عليه) ومن حجة الوقف المبرزة ومن الحكم البدائي الذي استند إليها في دعوى تصفية وقف المميز بعدد 229 / 955 بأن هذه القطعة هي من جملة موقوفات عادلة خاتون العائدة لآل المميز وقد تمت تصفيتها استناداً إلى حكم التصفية الصادر في الاضبارة المذكورة واكتسب الدرجة القطعية وأن أضابير الطابو للأملاك المجاورة لها أشارت إليها باعتبارها من جملة موقوفات آل المميز . ولعدم قناعة المدعي بالحكم المذكور فقد ميزه وكيله ضمن المدة القانونية طالباً نقضه بحجة مخالفته للقانون وذلك لأن محكمة الاستئناف استندت في تأييد الحكم البدائي إلى الكشف البدائي والبينات التحريرية والشخصية وحجة الوقف والحكم البدائي الخاصة بتصفية موقوفات عادلة خاتون وأنه بالرجوع إلى كافة تلك البينات لا نجد أي منها تصلح أن تكون سبباً للحكم وفقاً لدعوى موكله .

القرار /

لدى التدقيق والمداولة تبين أن الاعتراضات التي قدمها وكيل المميز على الحكم الاستئنافي أنه اعتمد على الفقرة الثانية من المادة (500) مدني . وعلى الكشف الذي أجرته محكمة البداءة والبينات التحريرية والشخصية ، وحجة الوقف ، والحكم البدائي الخاص بتصفية موقوفات عادلة خاتون ، وأن هذه الأدلة لا تصلح سبباً للحكم . فالاعتماد على الفقرة الثانية من المادة (500) مدني يدل على أن المحكمة استندت على الشهادات لإثبات ملكية العقار والتصرف فيه ، مع أن ملكية العقار لا تثبت بالشهادات . وأما التصرف الوارد حكمه في المادة 1158 مدني فلم تتحقق أركانه ، لأن العقار مسجل ولكنه خلو من الاسم ، كما أن المميز عليه لا صفة له في طلب تسجيل الملك ، لأنه بتصفية الوقف لم يعد متولياً، وحيث أن المراجعة وقعت بصفته متولياً للوقف فيكون قد نفى الملكية والحيازة عن شخصه، وليس له المطالبة بها بالإضافة إلى الوقف، والكشف الجاري جاء فيه أن القطعة موضوع الدعوى تفصلها القطعة تسلسل 1439 وهي تعود لوقف آل المميز مع أن كتاب مدير طابو بغداد في سنة 1937 تضمن أن العرصة من الشواطىء

الأميرية . كما أن حجة الوقف وقرار تصفية الوقف لم يتطرقا إلى هذه القطعة ، فهي خارجة عنه. ولما لم يبق أمام المميز عليه غير شهادات الشهود وهي لا يُعتَد بها بالنسبة للمال الذي زادت قيمته عن عشرة دنانير . فيكون الحكم غير مستند على سبب من أسباب الحكم .

ولقد وُجد أن هذه الاعتراضات لا سند لها من القانون، ذلك أن التصرف والحيازة وإثبات الملكية للملك غير المسجل في دائرة الطابو يكون بالشهادات على التصرف وادعاء الملكية وحيازة العقار حيازة المالك لملكه، وهي وقائع مادية تثبت بالشهادات. وأن للمحكمة في مجال تقدير الشهادات التي استمعتها سلطة تقديرية أعطاها لها القانون وقد ثبت من الشهادات المستمعة أن العقار تسلسل 1456 باب الآغا هو من أوقاف آل المميز . وأن المادة 1158 مدني منطبقة هنا ، فلا تسمع على المميز عليه دعوى الملك من أحد ، أما القول بأن الملك مسجل وخلو من الاسم فادعاء يدحضه ما في اضبارة الطابو لهذا العقار من معلومات فهي تدل صراحة على أن الملك غير مسجل . ولا بد من الإشارة هنا أن الفاصل بين الملك المسجل والملك غير المسجل هو أن الملك المسجل من عُرف مالكه وثبت اسمه في السجل والملك غير المسجل ما لا يُعرف له مالك . أما الإدعاء بأن المميز عليه له صفة في تسجيل الملك يناقضه إقامة الدعوى عليه في المحاكم لمنع معارضته في تسجيل الفرصة أميرية صرفة . ومراجعة المميز عليه دائرة الطابو لتسجيل العرصة وقفاً من أوقاف عادلة خاتون سواء بصفته مستحقاً بالوقف أو متولياً لا تمنع تسجيل الملك باسم الوقف طالما أضيفت العائدية إلى الوقف. أما الاعتراض على الكشوف التي أجرتها دائرة الطابو والمحكمة فإنه غير وارد لأن إجراءها كان بمسوغ قانوني فالاستناد إلى كتاب مدير طابو بغداد الصادر سنة 1937 لا يمكن أن يكون مستنداً للمدعي المميز لأنه مجرد من كل دليل يثبت أن الأرض تسلسل 1456 باب الآغا أميرية صرفة / أما القول بأن قرار التصفية والوقفية لم يتطرقا إلى الأرض موضوع الدعوى فإن كتاب محكمة بداءة بغداد بعدد 229 / 955 وتاريخ 13 / 11 / 965 يشير إلى طلب إكمال معاملة المجدد لأن المحكمة قائمة بتصفية وقف عادلة خاتون تنفيذاً للحكم المرقم 229 / 955 وكتابها إلى أمانة العاصمة

باستملاك الأرض تسلسل 1546 باب الآغا باعتبارها من أوقاف عادلة خاتون . وحيث أن الدفع بأن الشهادات لا يعتد بها فيما زادت قيمته على عشرة دنانير غير وارد لأن هذا التعميم مخالف للقوانين المرعية ذلك أن الإثبات لا يقبل فيما زاد على عشرة دنانير خاص بالديون وهذه الدعوى ليست دعوى دين بل دعوى إثبات حالة للعين وهو العقار . ودعوى العين يمكن أثبات ملكيتها بالشهادات ، كما أن بعض الديون يمكن إثباتها بالشهادات ، وذلك واضح من نصوص القانون المدني والتجاري . وحيث أن المميز لم يتمكن من إثبات كون الأرض تسلسل 1456 هي أرض أميرية صرفة ، فيكون الحكم الاستئنافي فيما استند عليه من أسباب موافقاً للقانون قرر تصديقه ورد الاعتراضات التمييزية وتحميل المميز رسم التمييز وصدر القرار بالاتفاق في 31 / 8 / 1969 .

(الملحق13)

صورة من دعوى لزيادة راتب أجد مدرسي المدرسة العادلية

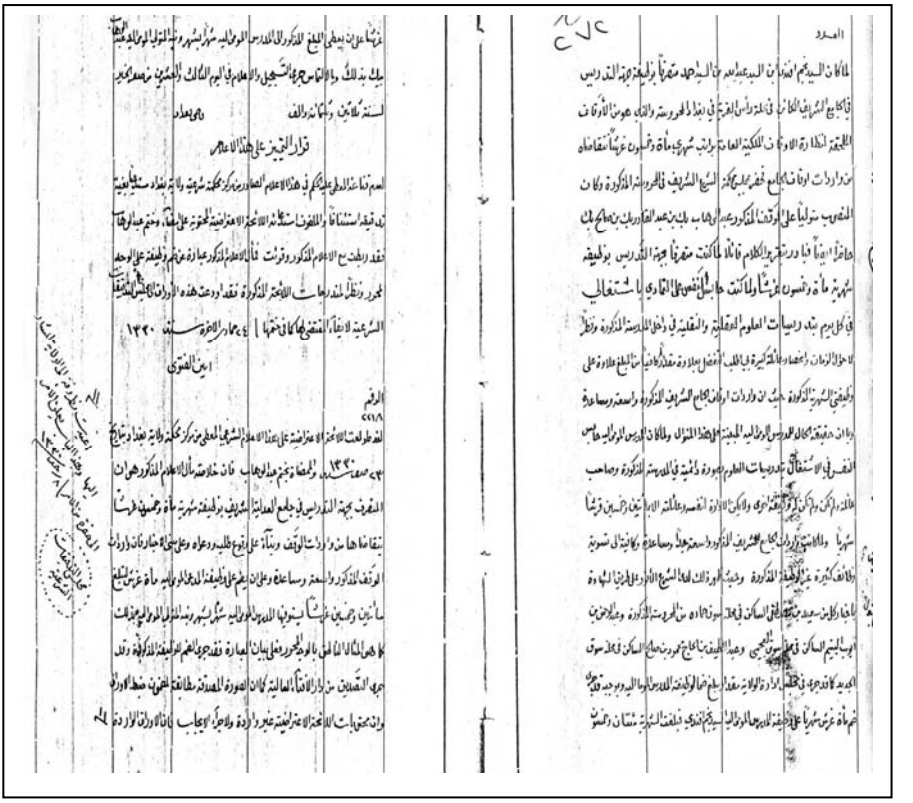

الملحق رقم (14)

صور متولي أوقاف عادلة خاتون

ابراهيم أفندي المميز متولي وقف عادلة خاتون من 1880 إلى 1905

عبد الستار بك بن عبد الجبار المميز آخر المتولين على وقف

الحاج محمد أمين المميز آخر متولي إدارة وقف عادلة خاتون المصف

ملحق (11)

شجرة آل حسن باشا جد عادلة خاتون كما قدمها لنا الحاج أمين المميز

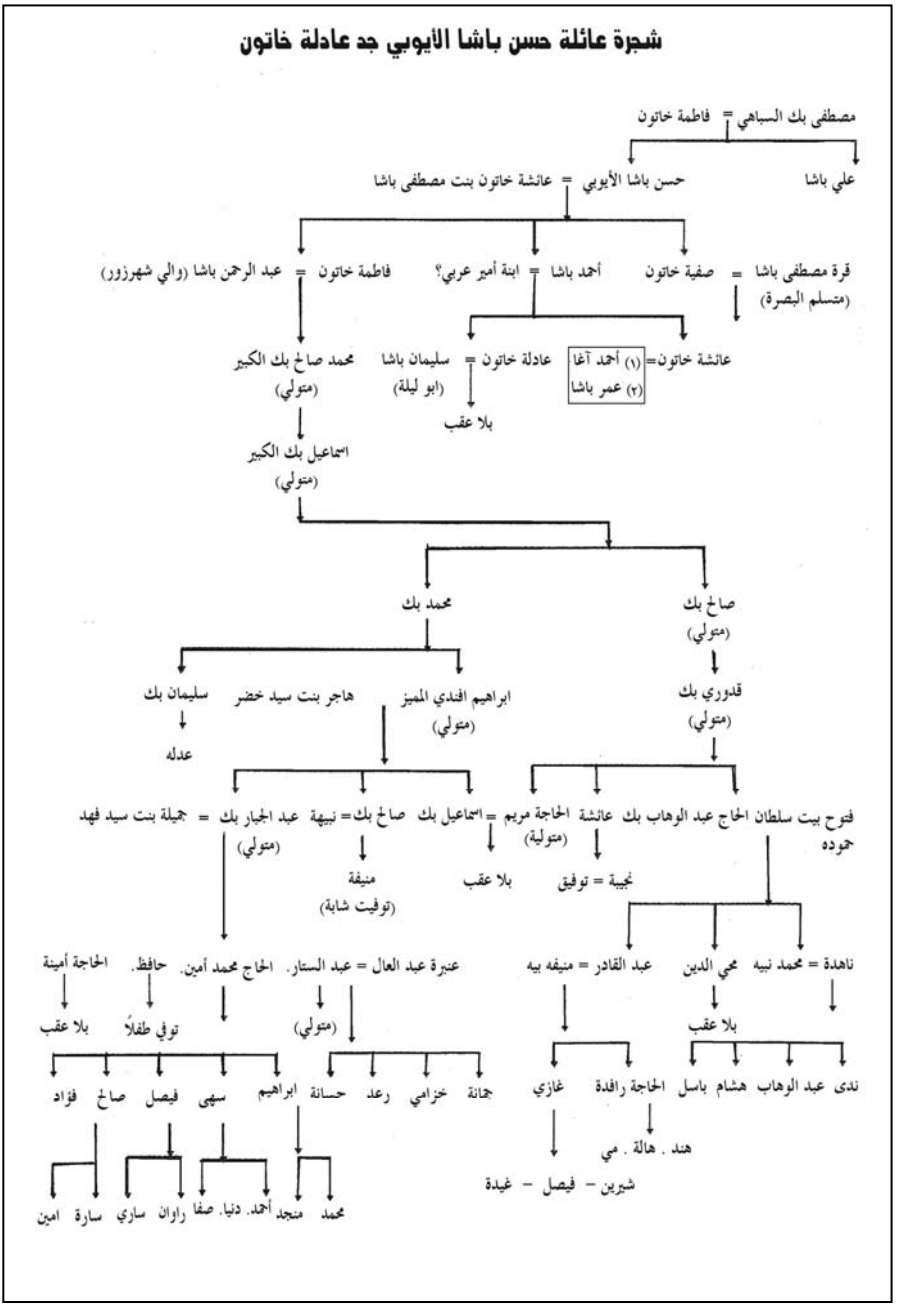

شجرة آل علي باشا بن حسن باشا، عم عادلة خاتون
كما أعدها هوشيار عبد الله

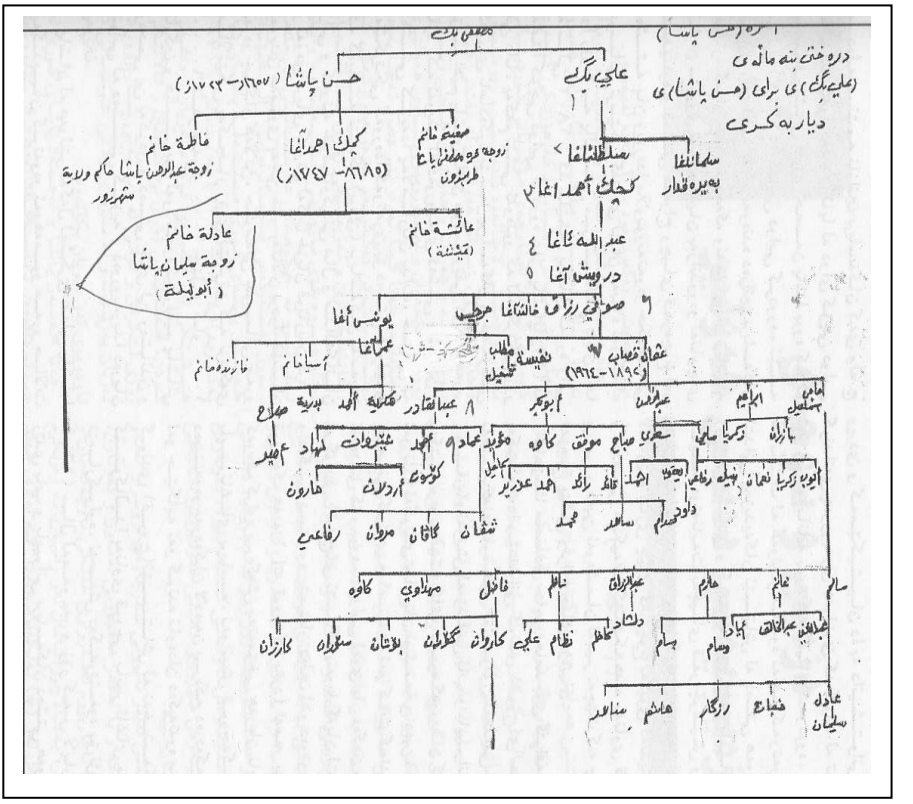

مصادر الكتاب

أولا: الوثائق غير المنشورة

1- الآرشيف العثماني، استانبول، دفاتر مهمة، دفتر 155ص118 في أواسط شوال 1164هـ، ودفتر 155 ص108 في أوائل شوال 1164هـ، دفتر 155ودفتر 155، ص291، في أواسط شوال 1165هـ ودفتر 155، دفتر 155، ص492 في أواسط رمضان 1166هـ، ودفتر 155 ص194 في اوائل شوال 1167هـ، ودفتر 158 ص119 في أواسط شوال 1169هـ، ودفتر 159 ص235 في اواسط ذي القعدة 1170، ودفتر 160 ص213 في أوائل شوال 1171هـ، ودفتر 162 ص 392 في أواسط ذي الحجة 1175هـ.

2- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية (سابقاً)، أرشيف الوقفيات والاعلامات والحجج الشرعية.

3- وثائق أسرية وكتب رسمية محفوظة لدى المرحوم الحاج امين المميز، متولي ادارة وقف عادلة خاتون المصفى أطلعنا عليها مشكوراً..

4- فهرست الوقفيات المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، جمعه ابراهيم بن عبد الغني الدروبي، نسخة بخطه مصورة لدى السيد زين أحمد النقشبندي أطلعنا عليها مشكوراً.

ثانياً: المخطوطات

1- الدروبي، ابراهيم بن عبد الغني: بداية الوقف ونهايته. نسخة بخط مؤلفها في مكتبة الاوقاف المركزية ببغداد.

2- الدروبي،_____: تاريخ قضاة بغداد. نسخة بخط مؤلفه لدى أسرته.

3- الرَّحبي، محمود بن عثمان: بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان، نسخة بخط مؤلفها في مكتبة المتحف البريطاني، فرغنا من تحقيقه وهو في سبيله إلى النشر.

4- العزاوي: تاريخ المساجد والمدارس، نسخة بخط مؤلفها في المركز الوطني للمخطوطات ببغداد.

5- عزّي، سليمان: مرأى التواريخ، بالتركية، نسخة في مكتبة جامعة القاهرة.

6 - العُمَري، ياسين: الدر المكنون في المآثر الخالية من القرون، نسخة مصورة لدينا عن نسخة المتحف البريطاني.

7- المارديني، عبد السلام المفتي: تاريخ ماردين، نسخة مصورة لدينا عن نسخة بخط المؤلف في دار الكتب المصرية

ثالثاً: الكتب المطبوعة

الأرناؤوط، د. محمد: الوقف في العالم الإسلامي، بيروت 2011، ص82-101.

الأعظمي، وليد عبد الكريم: جمهرة الخطاطين البغدادين، بغداد 1989.
الآلوسي، محمود شكري: مساجد بغداد وآثارها، تهذيب الشيخ محمد بهجة الأثري، بغداد 1346هـ.
اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ترجمة محمود كبيبو، لندن 2009.
اوليفييه: رحلة اوليفييه الى العراق، ترجمة د. يوسف حبيّ، بغداد 1988.
بلال، زبير إسماعيل: علماء ومدارس أربيل، الموصل 1984.
خياط، جعفر: صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، بيروت 1971.
الدروبي، ابراهيم: البغداديون، أخبارهم ومجالسهم، بغداد 1958.
روسو، جان بابتست لوي: وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة خالد عبد اللطيف حسن، بغداد 2012.
رؤوف ، د. عماد عبد السلام: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، بغداد 1983.
رؤوف:ـــ: تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، بغداد 2002.
رؤوف، ـــ: الأسر الحاكمة في ورجال الادارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد 1992.
رؤوف،ـــ: الخدمات النسوية العامة في العراق. طبعة محدودة، بغداد 1996.
رؤوف،ـــ: عبد الله السويدي، سيرته ورحلته، بغداد 1992.
رؤوف،ـــ: معالم بغداد في القرون المتأخرة في ضوء الوقفيات والإعلامات والحجج الشرعية المحفوظة في آرشيف وزارة الأوقاف ببغداد، بغداد 2000.
رؤوف،ـــ: الأصول التاريخية لمحلات بغداد، بغداد 2004،
الراوي، محمد سعيد: خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد 2006.
رسل، برتراند: السلطان، آراء جديدة في الفلسفة والاجتماع، ترجمة خيري حماد، بيروت 1962.
ريج، كلوديوس: رحلة ريج الى العراق عام 1820، ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد 1951.
زكي، محمد أمين: تاريخ السليمانية، ترجمة جميل بندي الروزبياني، بغداد 1951
سليمان فائق: تاريخ المماليك الكولة مند في بغداد، ترجمة محمد نجيب ارمنازي، بغداد 1961.
سليمان فائق: مرآة الزوراء في سيرة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، ونشر بعنوان تاريخ بغداد، بغداد 1962.
ابن سَنَد، عثمان البصري الوائلي: أصفى الموارد من سلسال مولانا خالد، القاهرة 1313هـ.
ابن سند،ـــــــــــــ: مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بيروت 2010.

السَّهروردي، محمد صالح: لب الألباب، بغداد 1933.
السُّويدي، عبد اللّٰه: النفحة المسكية في الرحلة المكية، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ط2، بيروت 2011.
السويدي، عبد الرحمن: حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد 2003.
السويدي، عبد الرحمن: ديوان عبد الرحمن السويدي، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ووليد عبد الكريم الأعظمي، بغداد 2000.
السويدي، محمد سعيد: ورود حديقة الوزراء بورود وزارة مواليهم في الزوراء، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، دمشق 2012.
الشيخلي، محمد رؤوف: المعجم الجغرافي لمدينة بغداد القديمة بين سنة 1270- 1360هـ ، البصرة 1977.
عبادة، عبد الحميد: العقد اللامع في المساجد والجوامع، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد 2005.
عباس بن جواد: نيل المراد في أحوال العراق وبغداد (حقق عماد عبد السلام بعض فصوله في كتابه مساجد بغداد في كتابات الأجداد، بغداد 2005).
العزاوي، عباس: تاريخ العراق بين احتلالين. ج5 ج6 ، بغداد 1953و 1954.
العطية، ودّاي: تاريخ الديوانية، النجف 1954.
العلاف، عبد الكريم: بغداد القديمة، بغداد 1960.
العُمَري: ياسين (منسوب إليه): روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار، بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف، السليمانية 2010.
العمري،ـ: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، بغداد 1968.
العمري،ـ: مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، تحقيق رجاء محمود السامرائي، بغداد 1966.
فريزر، جيمس بيلي: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، ترجمة جعفر خياط، ط:2، بيروت 2006.
قه فتان، توفيق: ميزوي حوكمدارلي بابان له قه لاجوالان، بغداد 1969.
الكركوكلي، رسول حاوي: دوحة الوزراء في وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت دون تاريخ.
كوك، ريجارد: بغداد مدينة السلام، ترجمة د. مصطفى جواد وفؤاد جميل، ج2 بغداد 1968 .
لوريمر، ج.ج: دليل الخليج، ترجمة ديوان أمير قطر.القسم التاريخي. قطر 1975.

لونكريك، همسلي: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر خياط ط:6، بغداد 1985.

المميز، امين: بغداد كما عرفتها، بغداد 1985.

النقشبندي، زين أحمد: تاريخ مقاهي بغداد القديمة، بغداد 2013.

نيبور، كارستن: رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ترجمة د. محمود الامين، بغداد 1965.

هويد، وليم: رحلة من ساحل مالابار إلى القسطنطينية، ترجمة سعاد هادي خضر، السليمانية 2011.

Lycklama, voyage en Russie,au Caucase et en Perse,dans la Mesopotamie le Kurdistan, 1866-1867 et 1868, Amsterdam.

Nieurwehuis ,T., politics and Society in Early Modren Iraq (Amsterdam 1982).

رابعاً: البحوث

رؤوف،ـــــــــــــ: طبقة التجار في العراق في عهد المماليك، الدور السياسي والثقافي، مجلة (ميزوو)، أربيل 2010، السنة 4، العدد 15.

رؤوف، ـــــــــــــ، ود. نرمين علي: خان عادلة خاتون في قوش تبة، دراسة تاريخية أثرية، معد للنشر.

عباس العزاوي: خلفاء مولانا خالد، مجلة المجمع العلمي الكردي، ج2 (بغداد 2) 1974.

عبد الله، هوشيار: ده زيي وناوجه دزه بيايه تي ده شتي هه ولير، بالكردية، مجلة (هه ولير)، الصادرة في أربيل، العدد 7، السنة 2000.

خامساً: دوائر معارف

دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة ط1، ج15 مادة (عادلة خاتون) بقلم كليمان هوار.

مصور دائرة المعارف، استانبول 1332هـ، ج1 ص530. مادة (أبو الضيا توفيق)

موسوعة القوات العراقية المسلحة، بغداد، وزارة الدفاع 1986، ج1، مادة (القوى والمؤسسات العسكرية العراقية من الغزو المغولي الى اقصاء المماليك عن حكم العراق) بقلم: د. عماد عبد السلام رؤوف.

الصحف

جريدة الزوراء، بغداد، 12 شباط 1287هـ.

المحتوى

مقدمة 7

الفصل الأول: سيرة شخصية وسياسية 11

أسرة وعهد 11

حديث النشأة 18

مرحلة جديدة 23

دور متعاظم 29

دور سياسي وعسكري 39

الفصل الثاني: مآثر ومبرات 51

1- جامع العادلية الصغير 53

2- جامع العادلية الكبير 62

3- المدرسة العادلية 72

4- بيت القضاة في بغداد 74

5- مشاريع مياه الشرب 78

6- خانات تجارية في بغداد 79

7- مقاه في بغداد 82

8- دار في محلة الصفارين 84

9- دار في محلة باب الآغا 84

10- دكاكين مختلفة 85

11- اسكلة خشب 86

12- بساتين 86

13- خانات في أنحاء مختلفة من العراق 89

14- تعمير جامع الكوفة 99

15- بناء جامع الريحانية في ماردين 102

خاتمة 109
الملاحق: وثائق وصور 111
مصادر الكتاب 151